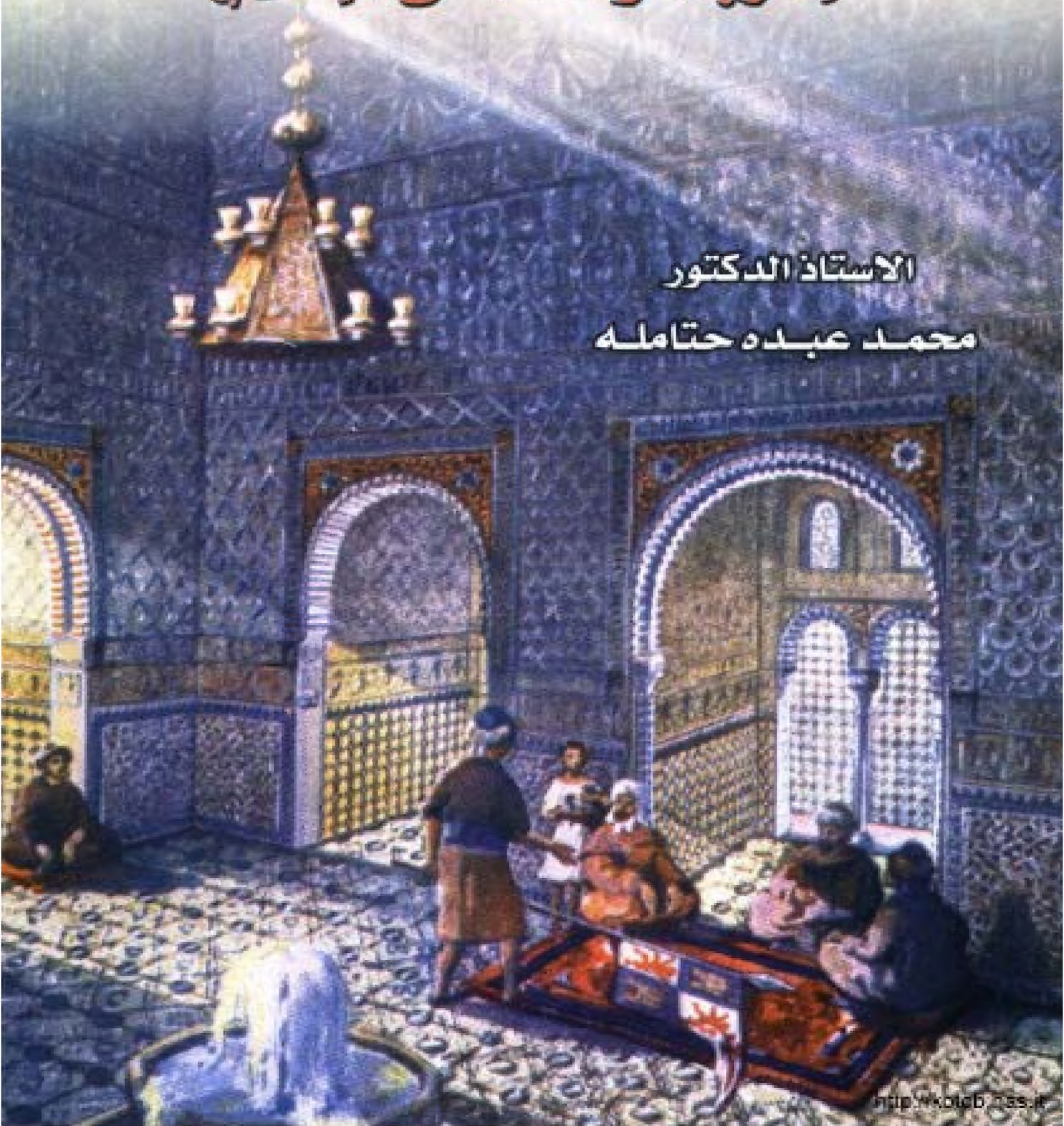


الاعتداءات الإفريقية (الصليبية) على ديار العرب في الأندلس والمشرق (حرب متواصلة على الإسلام)

الأستاذ الدكتور

محمد عبده حاتم



Hasan al-Hatamleh
at Irbid

الاعتداءات الإفرنجية (الصليبية) على ديار العرب في الأندلس (حرب متواصلة على الإسلام)

**The Crusade Against the Arabs in Spain (Andalus)
and the East (a Continuous war against Islam)**

Prof. Dr.

Mohammed Abdo Hatamleh

University of Jordan
Department of History

الأستاذ الدكتور

محمد عبد حاتمليه

قسم التاريخ / كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية
الجامعة الأردنية / عمان

Amman - Jordan

1422 A.H. / 2001 A.D.

عمان - الأردن

١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م

FD
3620
A5
H336
2001

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ
مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

صدق الله العظيم

آل عمران: ٢٦

الصفحة	الموضوع
٤	ملخص
٦	مقدمة
٩	الصلبيون في الأندلس
١٤	الهجمات الصليبية في الأندلس
٢١	معركة العقاب
٢١	معركة مرج غرناطة
٢٢	معركة Salado
٢٣	سقوط غرناطة ومعاهدة تسليمها
٢٥	أثر المعاهدة على المسلمين
٣٣	الغزو البرتغالي للمغرب العربي
٣٥	الغزو الإسباني للمغرب العربي
٣٧	الصلبيون في المشرق
٤٨	الحرب الصليبية مستمرة
٦١	فتح السلام
٦٣	عولمة الحرب الصليبية ضد المسلمين
٦٩	العولمة: سلاح صليبي جديد
٧١	الخاتمة
٧٨	المصادر والمراجع
٨٩	الملحق رقم (١) معاهدة تسليم غرناطة (العلنية)
٩٩	الملحق رقم (٢) معاهدة تسليم غرناطة (السرية)

الاعتداءات الإفرنجية (الصليبية) على ديار العرب في الأندلس والمشرق (حرب متواصلة على الإسلام)

ملخص

بأمر الأباطرة والملوك في أنحاء أوروبا إلى تلبية النداءات الصليبية التي كان يطلقها البابوات المتعاقبون، أذ جيشوا الجيوش، ووجهوها لمساعدة نصارى قشتالة في القضاء على الإسلام والمسلمين في الأندلس وفي المشرق العربي. وكانت هذه الجيوش التي ارتكبت الكثير من القذائع في حق المسلمين تستغل براية واحدة، هي راية الصليب، وقد تمكنت من تحقيق كثير من أهدافها وخاصة أن المسلمين ألفوا راية الجهاد، وانشغلوا عن دينهم بدنياهم.

وكانت بداية الهجمة الصليبية ضد الإسلام والمسلمين ذات طابع عسكري، إلا أن الصليبيين توسعوا في تنويع أسلحتهم، فأصبحت سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية. كما أنهم وسعوا ميدان المعركة ضد المسلمين فلم يقتصر ميدانها على الأندلس وبلاد الشام، وإنما امتد ليشمل المسلمين حيثما حلوا وأينما ارتحلوا.

وتستعرض هذه الدراسة باختصار شديد ما تعرضت له ديار العرب والمسلمين من حرب صليبية مستمرة طالت الأندلس وبلاد الشام والبوسنة والهرسك وغيرها، واستخدمت فيها وما تزال أنواع الأسلحة العسكرية والاقتصادية والثقافية، وأصبحت العولمة، والبنك الدولي، وصندوق النقد الدولي، ومنظمة التجارة العالمية من أخطر هذه الأسلحة الصليبية التي يستخدمها الغرب الصليبي اليوم ضد الإسلام والمسلمين.

ولعل السلاح الأخطر، والأكثر فتكاً الذي استخدمه الصليبيون ضدينا هو هذا
الخنجر المسموم الذي غرسوه في قلب بلادنا، وأعني به إسرائيل. ولن تقوم أمة العرب
من قائمة محمد إلا باستئصاله.

محمد عيده حنامة

قسم التاريخ كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية
الجامعة الأردنية

The Crusade Against the Arabs in Spain (Andalus) and the East (a Continuous war against Islam)

Prof. Dr.

Mohammed Abdo Hatamleh

University of Jordan
Department of History

Abstract

The call for the Crusades declared by many popes found an enthusiastic response from European kings, princes and emperors, who lead their armies under the banner of the cross against muslims and committed unspoken atrocities.

At the beginning, the war against Islam was a military one, then the Crusades expanded their methods to include political, economic, social and cultural warfare.

They also enlarged the scope of their operation to include attacks on Muslims in Spain and other places.

This study deals briefly with the crusades against Arabs and Muslims starting with the first crusade and ending with the modern crusade against Muslims in the Balkan. In the modern crusades we see the west using every available means; Globalization, M.L.F; World Trade Organization, to direct them against Islam and the Muslims.

Israel could be considered the most compelling and dangerous weapon that Arabs and Muslims have faced and still facing today.

الاعتداءات الإفرنجية (الصليبية) على ديار العرب في الأندلس والمشرق (حرب متواصلة على الإسلام)

مقدمة:

تعرضت ديار العرب والإسلام، وما زالت تتعرض، لغزو صليبي، اتخذ أشكالاً متعددة ومر بمراحل متتابعة، متخذاً من الدين مبرراً لتحقيق أطماعه الاستيطانية التوسعية والإجهاز على كيان الأمة العربية والإسلامية وحضارتها، وقد شجع الصليبيين على تنفيذ حملاتهم العدوانية ما آلت إليه أمة الإسلام من تجزئة وتمزق، ففي الأندلس تمزقت دولة المسلمين إلى دويلات تجاوز عددها العشرين، كما شهدت بلاد المشرق الإسلامي صراعاً بين أمراء السلاجقة وأتباعهم حتى أصبحت كل مدينة من مدن الشام تقريباً تحت حكم أمير مستقل. وكان ضيق النظر وطمعان المصالح الشخصية مسيطراً على هؤلاء الأمراء.

لقد شن القشتاليون هجمات صليبية متكررة ضد المسلمين في الأندلس، وترأس بعضها مع هجمات شنها الصليبيون على مشرق العالم الإسلامي، بل شاركت أكثر من حملة صليبية متجهة إلى الشرق في احتلال المدن الإسلامية في الأندلس، وأدى ذلك كله إلى سقوط المدن الأندلسية تباعاً في أيدي القشتاليين، بدءاً بطليطلة وانتهاءً بقرطبة التي اضطرت المسلمون إلى توقيع معاهدة مثلة بتسليمها.

واستمرت الهجمات الصليبية ضد المسلمين في المشرق، حيث ارتكب الصليبيون من الفظائع في فلسطين وفي ساحات المسجد الأقصى بشكل خاص ما تقشعر له الأبدان.

واستمرت الحملات الصليبية بعد سقوط غرناطة، إذ عمل النصارى على إضعاف المسلمين في كل مكان، فقطعوا طرقهم التجارية بين الشرق الأقصى والغرب، وانتلقوا على زرع إسرائيل في قلب العالم العربي المسلم، وعملوا على تفكيكه. وبعد انهيار الاتحاد السوفياتي قادوا حملة صليبية كبرى سموها عاصفة الصحراء، وأطلقوا من خلالها عاصفة اليورانيوم المنضب التي أخذت تأكل الأخضر واليابس في أجزاء شاسعة من بلاد العرب المسلمين، وستبقى آثارها المنمرة للحياة والأحياء عشرات السنين. وفرضوا على العرب المسلمين ممثلين في الفلسطينيين توقيع اتفاقيات أوسلو التي انتزعوا بموجبها أرض فلسطين المباركة وطناً أبدياً لليهود، وانتزعوا المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله، وانتزعوا قدس الأقداس لتكون عاصمة أبدية لذلك الوطن الذي أرادت يهودياً ليس حباً باليهود، وإنما تكريساً لفرقة الأمة، وإمعاناً في إضعافها.

وقد كانت الحروب الصليبية تشكل غزواً شاملاً للبلاد العربية الإسلامية في المشرق والمغرب، واقترن غزوهم بتعصب ديني أدى إلى ارتكاب الصليبيين لكثير من القذائع الوحشية والمجازر البشرية.

ويمكننا تحديد الإطار الزمني لهذه الحروب بأنها بدأت في الأندلس قبل أن تبدأ في المشرق الإسلامي وذلك منذ سقوط طليطلة سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م في يد جموع الصليبيين الذين تجمعوا من العديد من الأقطار الأوروبية لمساعدة القشتاليين في حربهم ضد المسلمين. واستمرت هذه الحروب بأشكال مختلفة في مراحل التاريخ اللاحقة، وتمثلت في الحملات الصليبية التي استهدفت فلسطين وسائر بلاد الشام وعددها أربع وهي الأولى والثانية والثالثة والسادسة، وفي تلك التي الحملتين اللتين استهدفتا مصر باعتبارها مركز النقل الإسلامي وهما الحملتان الخامسة والسابعة، ثم الحملة الثامنة التي استهدفت تونس. واستمرت تلك الحروب من خلال الصراع بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية منذ القرن الرابع عشر حتى سقوط الدولة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى. يضاف إلى ذلك الحملات الصليبية في الأندلس والمغرب العربي التي استمرت حتى بعد سقوط غرناطة مروراً بالاحتلال الأوروبي لأقطار المغرب العربي في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

وتحاول هذه الدراسة رسم الملامح العامة للتولية العربية الإسلامية بعد تفككها، ورصد الهجمات الصليبية ضد المسلمين في الأندلس وفي المشرق، وتحليل معاهدات التسليم واتفاقيات الاستسلام التي اضطر العرب المسلمون إلى توقيعها مع أعدائهم، والدروس التي يجب أن نتعلمها من الماضي، والعبر التي يجب أن نأخذها من أجل حاضر أفضل، ومستقبل نستعيد فيه زمام المبادرة، ونمضي معتصمين بحبل الله جميعاً لا نفرقنا نساءً النصارى ومكائدهم حتى يظهر دين الله على الدين كله.

كانت شبه الجزيرة الأيبيرية (Peninsula Espanica I Lberica) الواقعة في أقصى الطرف الجنوبي الغربي من قارة أوروبا قد خضعت قبل مجيء المسلمين إليها لشعوب كثيرة، فقد تعاقب عليها القينيقيون والإغريق والقرطاجيون والرومان والوندال (Vandalos) والآلان (Alanos) والسويف (Suevos) والقوط الغربيون^(١).

وكانت المنازعات الدينية والخلافات الكثيرة بين الأمراء من القوط الغربيين تعصف بشبه الجزيرة، ثم انشقت البلاد على نفسها بين رجال الدين والنبلاء^(٢)، ولم ينقذها من هذا التخبط سوى المسلمين الذين بادروا إلى فتحها على يد طارق بن زياد وموسى بن نصير في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك بن مروان (٨٦-٩٦هـ/٧٠٥-٧١٣م)^(٣).

بدأ فتح شبه الجزيرة الأيبيرية التي سماها المسلمون الأندلس سنة ٩٢هـ/٧١١م^(٤)، وتعاقب عليها بعد الفتح نحو عشرين والياً وذلك خلال الفترة ٩٥-١٣٨هـ/٧١٤-٧٥٦م^(٥)، وفي عهد هؤلاء الولاة عقدت أول معاهدة صلح بين المسلمين في الأندلس والنصارى، وتم توقيعها من الجانبين في رجب سنة ٩٤هـ/٧١٣م بين عبد العزيز بن موسى بن نصير وندمير بن عيوس حاكم ولاية تدمير التي تسمى باسمها، وقد نصت هذه المعاهدة على أن لتدمير "عهد الله وميثاقه، وما بعث به أنبياءه ورسله، وأن له ذمة الله عز وجل، وذمة محمد صلى الله عليه وسلم ألا يقدم له ولا يؤخر لأحد من أصحابه بسوء،

(١) حاملة، أيبيريا قبل مجيء العرب المسلمين، ص ٢٦-٢٧.

(٢) مؤنس، فجر الأندلس، ص ١٦-١٧؛ حاملة، موسوعة النبار الأندلسية: ج ١، ص ١١٨-١١٩.

(٣) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٤٥، ٤٨؛ الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص ٤٨-٤٩؛

مؤنس، فجر الأندلس، ص ١٦٦؛ حاملة، موسوعة النبار الأندلسية، ج ١، ص ١٥١-١٥٢.

(٤) الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص ٨-٩؛ ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ١٤٥؛ حاملة،

الموسوعة: ج ١، ص ١٥١.

(٥) حاملة، الموسوعة: ج ١، ص ١٥٢-١٥٤.

وان لا يسبون ولا يقرق بينهم وبين مسلميهم وبنوهم، ولا يعنوا، ولا يحرق حراسهم، ولا يكرهون على دينهم...»^(٦٥).

وبموجب هذا الصلح الذي وفي به المسلمون كعانتهم، وبموجب غيره من العهود التي أعطاه المسلمون أثناء قوتهم للنصارى، وانفردوا عن غيرهم من الأمم بالحرص على الوفاء بها، وعدم نقضها حتى في الظروف الحالكة، بموجب هذه العهود ساد الإسلام، وترسخ في كل مكان وصل إليه المسلمون.

لقد فتح المسلمون معظم أنحاء شبه الجزيرة الأيبيرية خلال فترة وجيزة، وتجاوزوها إلى جنوبي فرنسا، ولم يتوقفوا إلا قرب بلدة سانس (Sens) على بعد ثلاثين كيلومتراً جنوب باريس. واجتازت قواتهم نهر اللوار، وشارفوا على ضفاف نهر السين، وذلك خلال سنتي ١١٢ و ١١٣ هـ/ ٧٣٠ و ٧٣١ م^(٦٦).

ويؤكد بعض المؤرخين الأوروبيين أن العرب المسلمين وصلوا في فتوحاتهم إلى فرنسا وشمال إيطاليا، وقطعوا الطريق بين فرنسا وإيطاليا، حتى أن أسقف تريبونة لم يتمكن سنة ٢٩٩ هـ/ ٩١١ م من العودة إلى بلاده عندما استدعاه البابا انسطيوس الثالث لأمر مهم، لأن المسلمين كانوا يسيطرون على ممرات الألب، بل وصلوا إلى بحيرة (جنيف) (بحيرة لي مان) وما يحيط بها من جبال. وفي سنة ٣٢٩ هـ/ ٩٤٠ م وصل المسلمون إلى ميناء طولون، وفتحوا منطقة نيس، ثم منطقة جرينوبل وسهلها الخصيب حيث أقاموا قلاعاً حصينة كانوا ينطلقون منها لنشر الإسلام في المناطق المجاورة. وتمكنوا في سنة ٣٤١ هـ/ ٩٥٢ م من فتح سويسرا ووصلوا إلى بحيرة كونستانس، غير أنهم تعرضوا في منطقة البحيرة لهجوم صليبي معاكس ومباغت مما اضطرهم إلى تركها^(٦٧).

^(٦٥) العثري، نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار، ص ٤-٥: الحميري، الروض المعطار، ص ١١٢٢ مؤنس، فجر الأندلس، ص ١١٤-١١٥.

^(٦٦) مؤنس، فجر الأندلس، ص ٢٤٧.

^(٦٧) راجع كتاب المؤرخ الفرنسي رينو (غزو العرب لفرنسا وشمال إيطاليا وسويسرا).

وهكذا وصلت رايات الإسلام إلى قلب أوروبا الغربية، وهبت رياح الإسلام على النصرانية من كل ناحية، وغرغلت في التبريرا الإيطالية، وكان كثيرون من النصارى في جنوبي فرنسا يرحبون بالمسلمين الفاتحين، ويفضلونهم على بعض الفلاة من أبناء ملتهم القساة البعيدين عن كل تمدن وخاصة أن المسلمين لم تكن أيديهم تمتد بالأذى إلى أموال الناس فيما ينخلونه من البلاد إلا بقدر ما تضطربهم إليه الضرورات العسكرية، كما كانوا ينصفون الناس في الأندلس، ولا يكادون يؤذون رجال الدين أو المؤسسات الدينية النصرانية^(٩٩).

وتمكن الإسلام في الأندلس بما عرف عن المسلمين من تسامح، وأنشئت هناك دولة إسلامية بلغت أوج قوتها في عهد الخليفة الأموي عبد الرحمن الثالث الناصر لدين الله (٣٠٠-٣٥٠هـ/٩١٢-٩٦١م) الذي هابه ملوك قشتالة، وبلغت الأندلس في هذه نزوة التقدم والرفق^(١٠٠). ووفقت على بلاطة رسائل الأباطرة والملوك، "وهادئة الروم، وزدلفت إليه تطلب مهادنته ومناخفته بعظيم الذخائر، ولم يبق أمة سمعت به من ملوك الروم والإفرنجة والعجوس وسائر الأمم إلا وفقت عليه خاضعة راجية، وانصرف عنه راضية"^(١٠١).

وبدا انهيار الدولة الإسلامية في الأندلس بعد وفاة الناصر، وصار ملك البلاد في طوائف من الموالي والوزراء والكبار من العرب وغيرهم، وقام كل واحد منهم بأمر ناحية منها، وتغلب بعضهم على بعض^(١٠٢). وزاد عدد الممالك والدويلات التي أقامها ملوك الطوائف الذين يسميهم ابن عذاري (ملوك الفتنة)^(١٠٣) على اثنين وعشرين دولة،

^(٩٩) مؤنس، فجر الأندلس، ص ٢٨٤-٢٨٥.

^(١٠٠) ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب، ج ٢، ص ١٤٦-١٥٧ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٩، ص ٩٤٣ المقري، نفح الطيب ج ١، ص ٣٥٣ حاملة، الأندلس، ص ٢١٦ وما بعدها.

^(١٠١) المقري، نفح الطيب، ج ١، ص ٣٦٦.

^(١٠٢) ابن خلدون، تاريخه، ج ٤، ص ١٢٠ المقري، نفح الطيب، ج ١، ص ٤٣٨.

^(١٠٣) ابن عذاري، البيان المغرب، ج ٢، ص ١٨٧. وأهم الممالك والدويلات التي أقامها ملوك الفتنة في الأندلس: مملكة سرقسطة (Zaragoza)، ومملكة طليطلة (Toledo)، ومملكة إشبيلية (Sevilla) وغيرها. انظر: حاملة، الموسوعة، ج ١، ص ١٥٨.

وهو عند مساوٍ لعدد الدول العربية اليوم، هذه الدول التي انقسمت إليها الأمة العربية الإسلامية في المشرق بفعل الاستعمار الإيطالي والفرنسي والإنجليزي وغيره، كما سيأتي.

وتعرضت الأندلس بسبب التفكك والاضطراب لأطماع الإسبان، إذ كانوا المستفيدين الوحيدين من الفوضى العارمة التي أعقبت انهيار الخلافة الأموية هناك سنة ٤٢٢هـ/١٠٣٠م^(١٩)، وأخذوا يشنون الهجمات المصنوعة عوفاً لمن يطلب عونهم من ملوك الفتنة ضد بعضهم، وهو الأمر الذي نشهد مثله اليوم، فبعض الدول العربية استعانت بالولايات المتحدة الأمريكية وغيرها من دول الغرب للتصديقات ضد دول عربية أخرى، وكان الغرب التصرائفي هو المستفيد الوحيد من ذلك، حيث تمكن من ضرب الدولة العربية المرشحة للتهوؤ والتطور (العراق) فاضعفتها، واستحوذ في الوقت نفسه على مقدرات الأمة العربية وعلى خيراتها، وأمعن في تفكيكها ودق الأسافين بينها.

لقد كان ملوك الفتنة في الأندلس يتنازلون لأعداء الأمة من الإسبان عن القلاع والحصون، ويقدمون لهم الهدايا، ويدفعون لهم الجزية، كل ذلك من أجل عونهم ضد بعضهم بعضاً. وزاد ذلك من طمع ملوك الإسبان في بلاد المسلمين، إذ توسعوا في اعتداءاتهم، وقوضوا الخطوط الدفاعية للأندلس واخترقوها، وأهلكوا الزرع والضرع في الثغور، ثم اجتاحتها البلاد، ونكلوا بأهلها المسلمين تنكيلاً.

وارتكب الغرب - الذي أصبحنا اليوم نركن إليه ونواليه ونستجدي نصرة قضايانا منه - فظائع كثيرة في المسلمين، وارتكب العربيون اليوم، خاصة الولايات المتحدة الأمريكية، فظائع أشد في أهلنا الفلسطينيين على يد ربيبتهم إسرائيل.

^(١٩) ابن عذاري، البيان المغرب، ج ٣، ص ١٦٤، الكامل في التاريخ، ج ٧، ص ٢٩٠.

كان أول من استعمل مصطلح (الحرب الصليبية) أو (الحملة الصليبية) هو المؤرخ الفرنسي لويس ميمور في عهد الملك لويس الرابع عشر، فقد ألف كتاباً سنة ١٦٧٥م سماه (تاريخ الحروب الصليبية)^(١٤٠). وقد سميت الحروب الصليبية بهذا الاسم لأن الذين اشتركوا فيها كانوا حين يتجهزون لمحاربة المسلمين يخطبون على ألسنتهم علامة الصليب من قماش أحمر رمزاً للتواضع والأهداف والتوايا الدينية^(١٤١). فالهدف المعلن - إن في الحروب الصليبية ضد المسلمين في الأندلس أو في المشرق - كان دينياً، وهذا الهدف هو نفسه الذي لم يعد يعلنه الصليبيون في حروبهم المستمرة ضد المسلمين حتى اليوم.

وقد بدأت الحروب الصليبية في الأندلس عندما تمزقت وضعفت في عهد ملوك لفنتة، إذ استغلت الكنيسة هذا الوضع، وأخذت تحشد الفرسان من أنحاء أوروبا وتوجههم إلى الأندلس محيطة إياهم بهالة من الاستشهاد من أهل الدين والإيمان^(١٤٢). وأعطى البابا الكسندر الثاني (١٠٦١-١٠٧٣م) أن الكنيسة تغفر خطايا كل من يذهب لقتال المسلمين في إسبانيا، كما أعلن الحروب ضدهم هناك حروباً مقدسة^(١٤٣). وفي ظل هذا الجو المشحون بالتعصب الديني الأصعب لطلقت أول حملة صليبية لاحتلال مدينة برشتر Barbastro^(١٤٤) إحدى مدن مملكة سرقسطة. وكانت هذه الحملة بقيادة قائد فرسان القبايا الكسندر الثاني واسمه جيوم دي مونري (Guillaume de Montreuil) الذي هاجم المدينة في سنة ١٠٦٤هـ/١٠٦٤م بمشاركة قوات نصرانية من النورمان والفرنسيين والإيطاليين والأرغونيين والقطلونيين وغيرهم، وبعد دخولهم المدينة قتلوا رجالها كافة، وسبوا

(١٤٠) زابوروف، الصليبيون في الشرق، ص ١١.

(١٤١) المرجع نفسه، ص ١٣.

(١٤٢) المرجع نفسه، ص ٢٥.

(١٤٣) المرجع نفسه، ص ٢٦.

(١٤٤) تقع برشتر على بعد ستين كيلومتراً شمال سرقسطة على أحد فروع نهر الإبرو (Ebro) في شرقي الأندلس. انظر: باقوت، معجم البلدان، ج ١، ص ٣٧٠ معنري، نصوص عن الأندلس، ص ١٥٤؛ حشالة، الموسوعة، ج ١، ص ٢١١ وما بعدها.

نساءها^(٢٠١). وكان الجنود الصليبيون بعد استيلائهم على المدينة "يفتضون البكر بحضرة أبيها، والشب بعين زوجها وأهلها"^(٢٠٢)، وغير ذلك من أفعال يندى لها جبين الإنسانية^(٢٠٣).

وتحذر الإشارة هنا إلى أن الفظائع التي ارتكبتها الصليبيون في بريشتز ارتكبت اليهود الذين زرع لهم الصليبيون وطلاً في بلادنا لفظائع أشد هولاً منها، ففي نوسان من عام ١٩٤٨م هاجم الإرهانيون الصهاينة من الهاغاناه وشكيران والبالماخ قرية دير ياسين، وقتلوا في أحد بيوتها أربعة وعشرين شخصاً، وذبحوا في بيت آخر ولداً على ركة أمه، وقتلوا بالرمصاص أسرة من أحد عشر شخصاً بينهم امرأة في الثمانين وطفل في الثالثة. وكانوا يهفرون بطون النساء، ويقطعون الأيدي أو الأصابع لاقتزاع الحلي. كل ذلك فعلوه بهم بارد، ووحشية تتكرر حيناً بعد حين^(٢٠٤).

ولا بد من التنويه في هذا المجال بما يتحلى به المسلمون من رحمة وتسامح حتى مع أعدائهم، فعندما استرجعوا بريشتز في جمادى الأولى من سنة ٤٥٧هـ/١٠٦٥م^(٢٠٥) تلاشوا جراحهم القنينة، واكتفوا بقتل المحاربين من النصارى، وأخذ خيلهم وأسلحتهم^(٢٠٦).

واستهدفت الهجمة الصليبية الثانية ضد المسلمين في الأندلس مدينة طليطلة (Toledo)^(٢٠٧)، فبينما كان لفونسو السادس (١٠٦٥-١١٠٩م) يتطلع إلى احتلالها كان آلاف الصليبيين يتجمعون في المحيط الأطلسي قبالة لشبونة، وقد قدموا من ألمانيا

^(٢٠١) البكري، جغرافية الأندلس وأوروبا، ص ٩١.

^(٢٠٢) المقرئ، فتح الطيب، ج ٤، ص ٤٥٠.

^(٢٠٣) انظر التفاصيل: ابن عذاري، البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٢٥-٢٢٦ الحميري، الروض المعطار، ص ٦٩-٧٥.

^(٢٠٤) مايكل، د.ب، الأسرار المذهبة للكراسة الفلسطينية، ص ٧٢-٧٤.

^(٢٠٥) ابن عذاري، البيان المغرب، ج ٣، ص ١٢٢٧ المقرئ، فتح الطيب، ج ٤، ص ٤٥٤ الحميري، الروض المعطار، ص ٩١.

^(٢٠٦) الحميري، الروض المعطار، ص ٩١ ابن عذاري، البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٢٧.

^(٢٠٧) تقع مدينة طليطلة وسط شبه جزيرة إسبانيا على بعد ستين ميلاً إلى الجنوب الغربي من مدريد. انظر: الإنريسي، نزهة المشتاق، ج ٥، ص ٥٣٦ حاملة، الموسوعة، ج ٢، ص ٦٩٠.

والأراضي المنخفضة (بلجيكا وهولندا ولوكسمبرغ)، ومن إيطاليا وفرنسا وإيرلندا وإنجلترا، وأخذوا يبحثون عن معبر إلى البحر الأبيض المتوسط في طريقهم إلى الشرق لمحاربة المسلمين هناك، حيث كان المسلمون يسيطرون على مضيق جبل طارق، المعبر البحري الوحيد المعروف آنذاك إلى البحر الأبيض المتوسط. ولما علم ألفونسو السادس بوجودهم هرع إليهم، وألقى قهراً خطبة حماسية محرضاً إياهم على محاربة المسلمين في الأندلس بدلاً من الانتظار الطويل الذي قد لا ينتهي من أجل إيجاد طريق بديلة توصليهم إلى هدفهم في المشرق الإسلامي.

واستطاع ألفونسو السادس أن يؤثر على الصليبيين المنجمين في المحيط الأطلسي، فسارعوا إلى المشاركة في حملته ضد طليطلة بحماس، وقد بارك البابا كlement الثالث (١٠٨٠-١١٠٠م) جهودهم، فانقضوا على طليطلة بقيادة ملك قشتالة ألفونسو السادس^(٢٤)، وتمكنوا من احتلالها في المحرم من سنة ٤٧٨هـ/ أيار ١٠٨٥م. وكانوا قبل دخولها قد أعطوا لأهلها الأمان بضمان حرياتهم واحترام شعائرهم الدينية وحقوقهم وحرمة مساجدهم، ولكنهم بعد شهرين فقط نقضوا هذه العهود، وحولوا مسجد المدينة الجامع إلى كنيسة^(٢٥).

وتوجه الصليبيون بعد احتلال طليطلة عام ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م إلى الثغر الأعلى، وحاصروا سرقسطة^(٢٦) بقيادة ملك قشتالة ألفونسو السادس، بينما وجه المسلمون - خاصة المعتمد بن عباد استغاثة عاجلة إلى أمير المرابطين يوسف بن تاشفين الذي جيش الجيوش، وعبر إلى الأندلس، واشتبك مع النصارى في معركة الزلاقة في الثاني عشر من رمضان سنة ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م^(٢٧)، وانتصر عليهم انتصاراً مؤزراً، غير أنه لم يتمكن من استرجاع طليطلة.

^(٢٤) زابوروف، الصليبيون، ص ٢٤.

^(٢٥) المقرئ، نفح الطيب، ج ٤، ص ٤٤٧؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٨، ص ١٢٨؛ ابن الكثير، تاريخ الأندلس، ص ٨٥؛ حاملة، الموسوعة، ج ٢، ص ٧٠٢.

^(٢٦) تقع سرقسطة في شمال شرق الأندلس. انظر: حاملة، الموسوعة، ج ١، ص ٥٠٢.

^(٢٧) المراكشي، المعجب، ص ١٧٢؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ج ٤، ص ١١٦ وما بعدها.

واستعاد الصليبيون الذين كانوا قد قدموا من المحيط الأطلسي قوتهم، ونظموا صفوفهم بعد معركة الزلاقة، وعاونوا محاصرة مرسطة بقيادة ملك أرغون الفونسو الأول المحارب (١١٠٤-١١٣٤م)، وبعد أن انهكوا قوى المدينة تمكنوا من اقتحامها في سنة ٥١٢هـ/١١١٨م^(٣١).

وباحتلالهم مرسطة عاصمة الثغر الأعلى أمن الصليبيون طريقاً يرياً لهم إلى الشرق من لشبونة إلى طليطلة إلى مرسطة، ومن ثم إلى برشلونة على ساحل البحر الأبيض المتوسط، وبذلك تجنبوا مخاطر عبور منفذ يسيطر عليه المسلمون، وهو مضيق جبل طارق.

وتجدر الإشارة إلى أنه بعد وقوع طليطلة في قبضة النصارى تشكلت في فرنسا عام ٤٨٠هـ/١٠٨٧م وحدات إقطاعية قوية برئاسة دوق بورغونيا هوغ (Hugues) الأول، وكونت تولوز ريمون دي سانجيل الذي شارك في الحملة الصليبية الأولى على المشرق الإسلامي. واتترك في هذه الوحدات الإقطاعية أيضاً فيكونت ميلون، غيلوم شاربانتيه الذي قاد فيما بعد حملة صليبية استهدفت احتلال القدس^(٣٢).

وتعرضت إفراغه (Fraga)^(٣٣) سنة ٥٢٨هـ/١١٣٤م لهجمة صليبية بقيادة ملك أرغون الفونسو الأول (المحارب) (٤٨٧-٥٢٨هـ/١٠٩٤-١١٣٤م)، وبمشاركة عدد كبير من الفرسان الفرنسيين، فقد فرض عليها النصارى حصاراً مشدداً، وأقمعوا على احتلالها أو الموت دون ذلك، غير أن القائد المرابطي يحيى بن غانية تمكن من إلحاق الهزيمة بهم، وحررهم وذلك في ٢٣ رمضان ٥٢٨هـ/ ١٧ تموز ١١٣٤م^(٣٤).

(٣١) ابن الكردوبس، تاريخ الأندلس، ص ١١٧-١٢٠، الحميري، الأرواح المعطارة، ص ٩٧-٩٨؛ للناصرى، الاستقصاء، ج ٢، ص ٦٦-٦٧.

(٣٢) زيبوروف، الصليبيون، ص ٢٤.

(٣٣) مدينة قديمة تبعد عن مدينة لاردة (Lerida) إلى الجنوب الغربي نحو ثمانية عشر ميلاً، انظر: بافوت، معجم البلدان، ج ١، ص ٢٢٧؛ الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص ٢٤؛ حنابلة، الموسوعة، ج ١، ص ٩٩ وما بعدها.

(٣٤) الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص ٢٤؛ ابن عذاري، البيان للمغرب، ج ٤، ص ٩١-٩٢؛ حنابلة، الموسوعة، ج ١، ص ١٠٤.

وكانت مساهمة الصليبيين المنجحين إلى الشرق ملحوظة في حروب التصاري ضد مسلمي الأندلس، ففي سنة ٥٤٢هـ/١١٤٧م هاجم التصاري بقيادة ألفونسو هنريكيز، ملك البرتغال، مدينة لشبونة (Lisbona)^(٣٥)، وقد استعصت عليه أول الأمر، ولكن الحظ ساعده بمرور أسطول صليبي كان متوجهاً نحو الشرق، فعند وصول الصليبيين إلى ميناء البرتغال (البورتو) للتزود بالمؤن، طلب منهم أسقف لشبونة مساعدة ألفونسو في احتلال المدينة، وانتزاعها من أيدي المسلمين. وقد استخدم الإنجليز المشتركون في هذه الحملة الصليبية مقاتليهم، فتمكنوا من إبعاد المسلمين عن ريبض المدينة الغربي إلى داخل الأسوار، وحاولوا نقيها واختراقها إلا أنهم فشلوا، فلجأ الإنجليز إلى طريقة أخرى لاقتحام المدينة، إذ بنوا برجاً خشبياً عالياً، واندفعوا من السور مما مكنتهم من التغلب على المدافعين المسلمين، وأعقب ذلك دخول التصاري إلى المدينة في ٢٧ جمادى الأولى من سنة ٥٤٢هـ/٢٤ تشرين الأول ١١٤٧م^(٣٦).

ولزادت الروح الصليبية توجهاً لدى ملوك التصاري الذين ازداد تريبصهم بمسلمي الأندلس، وبالدويلات الإسلامية الضعيفة هناك، وأخذ بعض أولئك الملوك يعقدون المؤتمرات، ويحثون الصليبيين من كل حذب وصوب، ويرسمون الخطط للانتفاض على المسلمين، فبعد تمكن ملك قشتالة ألفونسو الثامن (٥٥٣-٦١١هـ/١١٥٨-١٢١٤م) من احتلال مدينة فونكة (Cuenca)^(٣٧) في ربيع الثاني من سنة ٥٧٣هـ/أيلول ١١٧٧م^(٣٨)، دعا إلى عقد مؤتمر في المدينة لتوحيد الجهود وحشد الحشود ضد المسلمين. وقد حضر ذلك المؤتمر إلى جانب ملك قشتالة ألفونسو الثامن ملك أرغون ألفونسو الثاني

(٣٥) تقع مدينة لشبونة عند مصب نهر تاجو (Tago) في المحيط الأطلسي، وهي اليوم عاصمة البرتغال، انظر: باقوت، معجم البلدان، ج ٥، ص ١١٦ ابن سعيد، المغرب، ج ١، ص ١١١ الحميري، الروض المعبور، ص ٤٦١ حاملة، الموسوعة، ج ٢، ص ٩٤١ وما بعدها.

(٣٦) الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ٤٦١-٤٦٢ الطيبي، دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٢٢٨-٢٤٠ حاملة، الموسوعة، ج ٢، ص ٩٤٧.

(٣٧) تقع مدينة فونكة على بعد ثلاثمائة ولتين وعشرين كيلومتراً إلى الشمال الغربي من مدينة بلنسية (Valencia). انظر: باقوت، معجم البلدان، ج ٤، ص ١٤١٥ الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص ١٩٤ حاملة، الموسوعة، ج ٢، ص ٩٠٤ وما بعدها.

(٣٨) حاملة، الموسوعة، ج ٢، ص ٩١١.

(٥٥٨-٥٩٣هـ/١١٦٢-١١٩٦م)، كما حضره مندوبون عن مختلف الممالك النصرانية في ليبيريا وغيرها من مناطق أوروبا. وصرخ ألفونسو الثامن في ذلك المؤتمر قائلاً: كلنا صليبيون^(١٢٩)، معلناً الحرب على المسلمين^(١٣٠).

وتجلبت الروح الصليبية، والاستجابة الواسعة لصرخة ملك قشتالة ألفونسو الثامن أثناء حصار ملك البرتغال سانشو الأول (Sancho I) لمدينة شلب (Silves)^(١٣١) سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م^(١٣٢). فقد تحمس سانشو لاحتلال المدن الإسلامية موطداً العزم على حشد الطاقات الصليبية لهذه الغاية، وفي أثناء حصاره للمدينة حلت بسواحل البرتغال حملة صليبية متجهة إلى الشرق، وقدمت له آلاف المقاتلين الذين تمكنوا من حفر السرايب تحت أسوار المدينة، وقطع المياه عنها، ولما ضيق أهلها المسلمون بالحصار عرضوا تسليم المدينة على أن يخرجوا منها ساقمين في أنفسهم، غير أن حلفاءه الصليبيين رفضوا الصلح، وطالبوا بقتل المسلمين جميعاً^(١٣٣).

وتكررت الهجمات الصليبية على مدن الأندلس في عهد ملك قشتالة ألفونسو الثامن الذي أجهاد المسلمون إلى شبطرة (Salamierra)^(١٣٤) حيث تحصن بها، وأخذ يشن الغارات على الأراضي الإسلامية بمعاونة ملك أرغون ألفونسو الثاني، والممالك النصرانية الأخرى.

(١٢٩) ليو رميله، علاقات الموحدين، ص ٢٥٠.

(١٣٠) الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص ١٣٧-١٣٨ القناصري، الاستقصاء، ج ٢، ص ٢٢٠.

(١٣١) تقع مدينة شلب في غربي الأندلس على بعد ثلاثة أميال عن المحيط الأطلسي. انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج ٣، ص ٣٥٧؛ الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص ١٠٦؛ حنابلة، الموسوعة، ج ١، ص ٥٦٢ وما بعدها.

(١٣٢) الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص ١٠٦؛ القناصري، الاستقصاء، ج ٢، ص ١٨٤.

(١٣٣) الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص ١٠٦؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٩، ص ٢١١؛ الحميري، تاريخ الأندلس، ص ٤٦٢-٤٦٣؛ حنابلة، الموسوعة، ج ١، ص ٥٦٩.

(١٣٤) حصن يقع على قمة جبل في أقصى الحدود الجنوبية لمملكة قشتالة. انظر: الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص ١٠٨؛ القناصري، الاستقصاء، ج ٢، ص ١٢١؛ حنابلة، الموسوعة، ج ١، ص ٥٧١ وما بعدها.

وقد أحرز المسلمون انتصاراً باهراً على القشتاليين في معركة الأرك (Alarcos)^(١٥١) التي جرت يوم الخميس التاسع من شعبان سنة ٥٩١هـ/١١٩٥م بين المسلمين بقيادة أبي يوسف يعقوب المنصور والنصارى بقيادة ألفونسو الثامن الملقب بالنبيل الذي نقض الهدنة التي كانت بينه وبين المسلمين وشرع في تحدي المسلمين، وكانت عاقبة هذه المعركة على النصارى وخيمة إذ قتل وأسر منهم خلق كثير وفر ألفونسو الثامن إلى طليطلة في أسوأ حال، فخلق رأسه ولحيته وحلف أن لا يركب فرساً ولا بغلاً ولا ينام على فراش ولا يقرب النساء حتى تنتصر النصرانية^(١٥٢).

وأخذ ألفونسو الثامن بعد هزيمته في الأرك يسعى إلى إنكاء الروح الصليبية عند النصارى في داخل إسبانيا وخارجها، وقد استجاب لدائه بيدرو الثاني (Pedro II) ملك أراغون، كما استجاب له سائر ملوك إسبانيا النصارى وعدد من الملوك الأوروبيين والبابا إنوسنت الثالث الذي كان شديد التعصب ومنحلياً بالروح الصليبية، فقد حدث جميع الأساقفة والرهبان والقساوسة على أن يعطوا رعاياهم بأن يمدوا يد العون والمساعدة بأموالهم وأنفسهم لتصرة ألفونسو الثامن، كما وعد البابا كل من يساهم في هذه الحملة بالظفران^(١٥٣). فاستجاب له النصارى قريبهم وبعيدهم وجاءوا إليه من كل حذب وصوب للمشاركة في حرب المسلمين، وخاضوا ضدهم معارك وحروباً طاحنة.

أ. معركة العقاب:

تجمعت لدى ألفونسو الثامن - نتيجة الدعوة الصليبية - قوات من أنحاء أوروبا فترتها بعض المراجع بمائة ألف مقاتل، والتقت مع المسلمين في سهل يقع قرب حصن العقاب يوم الاثنين الخامس عشر من صفر سنة ٦٠٩هـ/ ١٦ تموز ١٢١٢م، وانتصرت عليهم، مما اضطر الخليفة الموحدى أبا عبد الله محمد الناصر (٥٩٥-٦١٠هـ/١١٩٩-

^(١٥١) سميت معركة الأرك بهذا الاسم لوقوعها قرب حصن الأرك. الطرا: حاملة، الموسوعة، ج ١، ص ٤٢-٤٩.

^(١٥٢) المقري، فتح الطيب، ج ١، ص ٤٤٣ الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج ٢، ص ١٨٥-١٩٣.

^(١٥٣) الحجى، التاريخ الأندلسي، ص ١٤٩١ حاملة، الموسوعة، ج ٢، ص ٧١٠.

١٢١٣م)، قائد المسلمين في تلك المعركة إلى الأسلاب، ومن ثم عاد إلى المغرب، وتوفي هناك في مدينة سلا ليلة الثلاثاء عاشر شعبان سنة ٦١٠هـ/١٢١٣م^(١٨).

ب. معركة مرج غرناطة:

ومن المعارك ذات الطابع الصليبي التي خاضها النصارى ضد المسلمين في الأندلس تلك المعركة التي وقعت في المرج الواقع بظاهر غرناطة سنة ٧١٩هـ/١٣١٩م، فقد خاض تلك المعركة من النصارى جيش قشتالي بقيادة دون بيدرو ودون خوان الوصيين على الملك ألفونسو الحادي عشر (١٣١٢-١٣٥٠م)، واشترك معهما جنود من عدد من الإقطار الأوروبية، وخصوصاً من الإنجليز. ويذكر المقرئ أن دون بيدرو (Don Pedro) ألب ملوك النصارى، وما إن جاءت سنة ٧١٩هـ/١٣١٩م حتى تجمع لديه جيش لا يحصى، فتوجه بهم إلى غرناطة ومعه خمسة وعشرون ملكاً يؤيدهم الكنيسة بقصد استئصال المسلمين^(١٩). غير أن المعركة انتهت بهزيمة النصارى ومقتل قائدهم دون بيدرو وبعض ملوك النصارى الذين دعموه^(٢٠).

وفي موقعة مرج غرناطة تجلت قدرة الله الذي وعد المؤمنين الذين يصدقون النية في الجهاد بالنصر، إذ نصر المؤمنين وهم قلة لا يتجاوز عددهم ستة آلاف بقيادة ملك غرناطة إسماعيل أبي الوليد بن فرج بن إسماعيل بن يوسف (٧١٣-٧٢٥هـ/١٣١٤-١٣٢٥م)، لأنهم أخلصوا النية، ولجأوا إلى الله تعالى فنصرهم، ومكنهم من قتل خمسين

(١٨) للمزيد عن معركة العقاب انظر: الناصري، الاستقصاء، ص ١٩٢ وما بعدها؛ الحميري، الروض المسطور، ص ١٤١٦؛ المقرئ، نفع الطيب، ج ٤، ص ١٣٨٢؛ الثوري، نهاية الأرب، ج ٢٤، ص ٣٤٢؛ حنابلة، الموسوعة، ج ٢، ص ٧٠٩ وما بعدها.

(١٩) المقرئ، نفع الطيب، ج ١، ص ٤٤٩-٤٥١ وانظر: الناصري، الاستقصاء، ج ٣، ص ١٠٨-١٠٩؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ج ١، ص ٣٨٩؛ طائ، نهاية الأختلص، ص ١١٨، ١٧١.

(٢٠) المقرئ، نفع الطيب، ج ١، ص ٤٥٠.

لُفأ من النصاري المهاجمين الذين ولت بقيتهم الأدبار، وهناك كثيرون منهم وهم يتدافعون هرباً، حيث سقطوا في نهر شنيل (Rio Genil)^(٥١١)، بينما كان المسلمون يكتسحونهم^(٥١٢).

ج. معركة (Salado):

وازدادت الهجمة الصليبية ضد المسلمين في الأندلس ضراوة بعد معركة مرج غرناطة، وأصبحت تلبية النصاري لنداء الصليب الذي كان البابا نفسه يطلقه غالباً أكثر سرعة، ذلك أن البابا كان هو المحرك للحرب الدينية للضروس ضد الإسلام وحضارة الإسلام. وما يؤكد ذلك كله تلك الهجمة الصليبية التي وقعت في عهد ملك غرناطة يوسف الأول أبي الحجاج بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل (٧٢٣-٧٥٥هـ/١٢٢٣-١٣٥٤م)، حيث أرسل ألفونسو الحادي عشر، ملك قشتالة وليون، أسطولاً لاعتراض المسلمين في مضيق جبل طارق وقطع الإمدادات عنهم. وانضم إليه في هذه الحملة ملك إنجلترا إدوارد الثالث (١٣٢٧-١٣٧٧م)، وملك البرتغال ألفونسو الرابع (١٣٢٥-١٣٨٧م) بتأييد البابا كلمنت السادس (١٣٤٢-١٣٥٢م). واشتبكت جيوش النصاري مع جيش المسلمين في معركة (Salado) التي انتهت بهزيمة المسلمين، واستشهد عدد كبير من أعلامهم^(٥١٣).

وكان من نتائج معركة (Salado) تمكن القوات الصليبية من احتلال الجزيرة الخضراء (Algeciras)^(٥١٤) وذلك سنة ٧٤٣هـ/١٣٤٢م^(٥١٥)، وتحفز ملك قشتالة لاحتلال الأندلس كلها لولا فضل الله على الإسلام، فقد انتشر وباء هلك فيه ألفونسو الحادي عشر

^(٥١١) يسمى أيضاً نهر غرناطة ونهر سنجل. انظر: ابن الكثير، تاريخ الأندلس، ص ١٤٠-١٤١.

^(٥١٢) المقري، فتح الطيب، ج ١، ص ١٤٨، حاملة، الموسوعة، ج ٢، ص ١١٠٣.

^(٥١٣) الناصري، الاستقصاء، ج ٢، ص ١٠٩.

^(٥١٤) ابن الخطيب، للمحة القيصرية، ص ١٠٥-١٠٩؛ المقري، فتح الطيب، ج ٥، ص ١٤؛ الناصري، الاستقصاء، ج ٣، ص ١٢٤-١٢٧، الحجي، لتاريخ الأندلس، ص ٥٤٣، حاملة، الأندلس، ص ٥٨١.

^(٥١٥) مدينة تقع في أقصى جنوبي الأندلس بجوار جبل طارق. انظر: باقوت، معجم البلدان، ج ٢، ص ١٢٦؛ الحميري، الروض المصطف، ص ١٢٢؛ العنزي، نصوص عن الأندلس، ص ١١٧، حاملة، الموسوعة، ج ١، ص ٣٩١ وما بعدها.

^(٥١٦) الناصري، الاستقصاء، ج ٢، ص ١٣٧-١٣٨.

سنة ٧٥١هـ/١٣٥٠م، كما هلكت أعداد كبيرة من الجيوش الصليبية التي اشتركت في تلك الهجمة^(٥٦).

د. سقوط غرناطة ومعاهدة تسليمها:

ويعكس المغزى الديني للحرب الصليبية التي شنها النصارى ضد مسلمي الأندلس بناء مدينة شنتفي (Santa Fe) على أبواب غرناطة سنة ٨٩٧هـ/١٤٩٢م، فاسم هذه المدينة يعني الإيمان المقدس، وقد بناها ملك قشتالة فرناندو الخامس وزوجه الملكة إيزابيلا بشارعين متقاطعين على شكل صليب، قسما المدينة إلى أربعة أحياء في وسطها ميدان مسيحي لاجتماع الجيش^(٥٧).

وقد ارتبط بناء مدينة شنتفي بحصار غرناطة الذي انتهى بسقوطها، وبدأ هذا الحصار سنة ٨٩٦هـ/١٤٩٠م حين هاجم الإسبان غرناطة، وهدموا ما حولها من قرى وحصون، وضيّقوا عليها الخناق، وقطعوا عنها جميع الإمدادات، ولما اشتد الأمر على أهلها المسلمين اضطروا بعد نحو سبعة أشهر من الحصار إلى تسليمها للملكين الكاثوليكين فرناندو الخامس وإيزابيلا المرابطين في مدينة شنتفي، وقد دخلت المدينة في ثاني ربيع الأول سنة ٨٩٧هـ/١٤٩١م^(٥٨)، وذلك بموجب معاهدة علنية، وأخرى سرية تشكر بعض نصوصها عندما نطالع اتفاقيات أوصلو المثلة التي وقعها الفسطاطيون مع اليهود، كما سيأتي.

(٥٦) علان، نهاية الأندلس، ص ١٢٢٢ حاملة، الأندلس، ص ٥٨٢.

(٥٧) علان، نهاية الأندلس، ص ٢٢٢ حاملة، محنة مسلمي الأندلس، ص ١٥٠ المرسوعة، ج ١، ص ٦١٢-٦١٣.

(٥٨) انظر تفاصيل سقوط غرناطة في: المغزى، ج ٤، ص ٥١٩ وما بعدها مجهول، نبذة العصر، ص ٤٠-٤٣ حاملة، الأندلس، ص ٦٢٠-٦٢٢.

جاءت معاهدة تسليم غرناطة، أو قل استسلام الأندلس لنصارى قشتالة نتيجة للهجمة الصليبية التي شنّها النصارى ضد المسلمين هناك على شكل حملات متتابعة. وساهم في نجاح تلك الهجمة فشل المسلمين في توحيد صفوفهم، وابتعادهم عن هابتهم الأولى التي قادتهم إلى فتح الأندلس، وهي الجهاد في سبيل الله، وإعلاء كلمة لا إله إلا الله، ونشر الدعوة الإسلامية بين الأمم والشعوب كافة، على عكس النصارى الذين وحدهم تعصبهم الديني، وجمتهم الصليب، وتنادوا إلى نصر بعضهم بعضاً ضد الإسلام وحضارته، وتكاتفوا بابواب وأباطرة وملوكاً ولجاء في الوقت الذي لم يجد فيه المسلمون من بعضهم ولياً أو نصيراً.

وأقصى المسلمون في الأندلس غير قادرين على المناورة أو التحدي بعد أن نجحت الهجمة الصليبية ضدهم، وأصبحت سباتك الخيل النصرانية تدق أبواب معقلهم الأخير غرناطة، وأيدي الملكين الكاثوليكين فرناندو الخامس وإيزابيلا تمتد لانتزاع الأقاليم عن تلك الأبواب دوتما رادع، ودونما خوف من مدد يأتي من هنا أو هناك من بلاد الإسلام الواسعة، ذلك أن الطرق أصبحت إلى الأندلس مقطوعة، وبلاد الإسلام في الشرق كله غارقة في مشكلاتها، وفي حروبها مع الصليبيين الذين هاجموا هناك أيضاً وقطعوا لوصالها.

لقد وقعت بين مسلمي الأندلس والقشتاليين اتفاقيتان في مدينة الصليب: سلتقي الزابضة على أبواب غرناطة، وذلك في ثلثي ربيع الأول سنة ٨٩٧هـ/ الخامس والعشرين من تشرين الثاني سنة ١٤٩١م، وشكلت الاتفاقيتان ما عُرِف بمعاهدة تسليم غرناطة^(٥٩).

(٥٩) انظر المتحقيق رقم (١) ورقم (٢)، وقد نشرت كلمة في: حاملة، الأندلس، ص ٩٢٩ وما بعدها؛ التصوير القسري لمسلمي الأندلس في عهد الملكين الكاثوليكين، ص ١٩ وما بعدها.

وكانت الاتفاقية الأولى علنية^(١١)، وقد عالجت بنودها السبعة والأربعون كيفية تسليم مدينة غرناطة للقشتاليين، وتناولت حقوق الطرفين وواجباتهما بما يوحى بأنها اتفاقية متكافئة.

أما الاتفاقية الثانية فقد كانت سرية^(١٢)، وظلت فترة طويلة طي الكتمان. وهي تنحصر في ستة عشر بنداً تتضمن الحقوق والواجبات والامتيازات التي منحت لأبي عبد الله الصغير، ملك غرناطة، وأفراد أسرته وحاشيته.

وهذه المعاهدة باتفاقيتيها العلنية والسرية، يظن من ينظر إلى بنودها نظرة سريعة أنها متكافئة، وتحافظ على حقوق الطرفين، ولكن المتعمّن للقاحص الذي يقرأ ما بين السطور، ويربط ما بين تلك البنود والظروف التي كانت سائدة على الأرض، يكتشف مدى الإجحاف الذي لحق بمسلمي الأندلس، فقد أخذ القشتاليون - من خلال هذه المعاهدة - كل ما تعنوا أخذه، وحققوا جميع أمنياتهم خاصة السيطرة على الأرض، في حين لم يحصل مسلمو الأندلس إلا على حزمة من الوعود التي سرعان ما تكثفها القشتاليون، وتحولوا من الالتزام بأي منها.

لقد التحقت هذه المعاهدة بالمسلمين لدى شديداً، وفي كنف خباياها وأبعادها ما فيه من عظة للأجيال، وعبرة للأمم والأقوام، خاصة المسلمين والعرب الذين يجب أن يكونوا أكثر حذراً وبقية، وأن يحرصوا صفوفهم، ويتنبهوا للأخطار المحققة بهم، حتى لا يقعوا في مثل ما وقع فيه مسلمو الأندلس الذين كانوا - عند توقيع المعاهدة - يعانون من التشرذم والهزال الفكري والسياسي والعسكري، مما جعل الجانب القشتالي يفرض عليهم جميع شروطه، ويحقق كل أهدافه، وينفع الأندلسيين دفعاً إلى الهزيمة والاستسلام.

إن توقيع المعاهدة لم يكن يرضى المسلمين، ولا يملأ إرادتهم، وإنما تم بعد حصار المدينة حصاراً طويلاً أدى إلى إضعاف المسلمين، وتحطيم معنوياتهم، وهنم عزائمهم.

(١١) انظر الملحق رقم (١).

(١٢) انظر الملحق رقم (٢).

ومن نعم النظر في المعاهدة، وبمعرض بنودها، سرعان ما يكتشف أنها لم تكن بين القشتاليين وبين الملك أبي عبد الله الصغير، وإنما أشرك القشتاليون معه قادة الجيش والفقهاء والعلماء والوجهاء والحجاب والناس كافة، وذلك حتى تكون ملزمة للجميع، فلا يعمل أحد على نقضها أو التحلل منها محتجاً أنه لم يشارك في التوقيع عليها، أو أنه لم يوافق على محتوياتها^(٦٢).

ولصحت المعاهدة أيضاً على أن يقدم ملك غرناطة ووجهاء المدينة للجانب القشتالي قبل موعد التسليم بيوم واحد خمسمائة رهينة من أبناء طبقة الفوم، وذلك لضمان عملية التسليم، على أن يظل هؤلاء رهائن لدى الجانب القشتالي لمدة عشرة أيام يتم خلالها ترميم معقل الحمراء والبيلازين^(٦٣).

كما نصت المعاهدة على تحديد أماكن آمنة يتم الدخول إلى المدينة عبرها، وهي: باب العشار، وباب النجدة، والحقول الخارجية، وعلى أن يتم تجنب الدخول من وسط المدينة حيث الكثافة السكانية الكبيرة، والأسوار العالية، والحصون المنيع، وذلك خشية حدوث ما لا تحمد عقباه، فقد كان القشتاليون يتركون أن سكان المدينة كارهون لهم، عاززون عن التعامل معهم. وعلى كل حال فإن تحديد تلك الأماكن يدل دلالة واضحة على أن الجانب القشتالي كان يعلم كل صغيرة وكبيرة داخل المدينة، وذلك من خلال العيون التي كان يبثها في كل مكان^(٦٤).

ولصحت المعاهدة كذلك على السماح لمسلمي الأندلس بالاحتفاظ بأسلحتهم الشخصية فقط، أما الذخائر والأسلحة الهجومية فيجب أن يسلموها إلى القشتاليين^(٦٥)، مما يدل على أن الأسبان كانوا يبيتون الشر، ويخططون لإجهاض أي محاولة قد يفكر بها المسلمون للثورة عليهم. يضاف إلى ذلك أن تجريد المقاتل من سلاحه سيحبطه، ويدفعه إلى الانزواء

^(٦٢) انظر نص المادة الأولى من الاتفاقية الأولى (الملحق رقم ١).

^(٦٣) المرجع نفسه.

^(٦٤) نص المادة الثانية من الاتفاقية الأولى.

^(٦٥) نص المادة الخامسة من الاتفاقية الأولى.

والبحث عن أنماط جديدة للحياة، مما يحقق للطرف القوي سيطرة كاملة على الأرض، ويقتل الأمل باستعادتها.

ولم يقتصر الأمر على ما تقدم، فقد اتطوت المعاهدة على كثير من الخيبت حيث نصت بنودها صراحة على أنه يحق لمسلمي الأندلس العيش والإقامة هناك بحرية تامة دون اضطهاد أو تمييز، ولكنها نصت في الوقت نفسه على السماح لهم بالهجرة إلى أرض المغرب، وقد استغل القشتاليون هذا النص بدهاء، حيث وطروا السفن لنقل الراهبين في الهجرة مجاناً خلال شهرين من تاريخ التوقيع على المعاهدة، فلم يكن أمام المسلمين - وقد حل بهم ما حل - إلا أن يستغلوا الفرصة، ويسارعوا إلى النجاة بجلودهم^(١٦١).

وهناك بلود أخرى تيطن من التعسف والجور غير ما تظهر، وتوحي لمن يقرأها لأول وهلة بشيء من الرحمة، وقليل من التكافؤ، ولكنها تكشف للمتعمق الكثير من الظلم، فقد أعطت من يرغب في الهجرة من المسلمين الحق في بيع ممتلكاته جميعها، أو تفويض بيعها إلى من ينوب عنه إذا لم يتمكن من البيع خلال الفترة المحددة، إلا أنه لم تعط ضمانات لذلك، فلم يجرؤ أحد على المطالبة بحقوقه، ورفض غيره أن يكون مفوضاً للمطالبة بها وذلك بسبب القمع والاضطهاد المخيفين^(١٦٢).

لقد نجم عن تلك المعاهدة الكثير من المآسي والويلات، ومن ذلك نشره للملايين من أهل البلاد المسلمين في شتى بلدان العالم، إذ لا تكاد تخطو دولة من دوله من مجموعة من المهجرين الذين يعودون بجذورهم إلى الأندلس.

ولو تتبعنا نصوص المعاهدة لعرفنا كيف أصبح مسلمو الأندلس أقلية بعد عزيمتهم، ولو تفحصنا ما رافقها من أحداث لأدركنا ما اتطوت عليه من إرهابات لما سيصيبهم من اضطهاد وقمع وثقتت، فقد أُلحقت بعض نصوصها حرية العبادة، وسمحت ببقاء المساجد والمدارس دون المساس بالأوقاف المرصودة للإنفاق عليها، حتى تكفل لها الاستمرارية، وللعاملين فيها البقاء، إلا أن القشتاليين سرعان ما تنكروا لذلك، حيث بدأت المضايقات

^(١٦١) نص المادة الخامسة من الاتفاقية الأولى.

^(١٦٢) نص المادة السابعة من الاتفاقية الأولى.

تتزايد، والاستكرازات تكثر يوماً بعد يوم، ثم رفعوا في وجه المسلمين ذلك لشعار القاسي: التنصير أو التهجير.

ولورنت المعاهدة نصوصاً تتعلق بالضرائب بترأى لمن يطالعها أنها لصالح المسلمين، دون أن يدرك ما تبث في أحشائها، فقد أكدت تنازل القشتاليين عن الضرائب لمدة ثلاث سنوات، إلا أن الهدف الحقيقي من وراء هذا التنازل، إنما كان إتاحة الفرصة أمامهم لإحكام السيطرة على البلاد، وإنجاز عمليات الإحصاء الفعلي لتحقيق تلك السكان والممتلكات، وذلك تمهيداً لقرض ضرائب باهظة تعويضاً للدولة القشتالية عما خسرتة أثناء حصار غرناطة، وفي الاستعداد العسكري لاقتحامها من جهة، ولكي تجبر من بقي صامداً فيها من أهلها المسلمين على التفكير بالهجرة بعد أن تصبح الحياة فيها مستحيلة بسبب القمع والاضطهاد وارتفاع الضرائب من جهة ثانية، وخاصة أن المعاهدة نصت على إعادة دفع الضرائب عن الأملاك والأراضي السلطانية بعد انتهاء السنوات الثلاث، وفق قيمة هذه الأملاك^(١٧١).

وتضمنت المعاهدة بنوداً تتعلق بالأحوال الشخصية للمسلمين كالزواج والإرث والقضاء الإسلامي، وأوصت باحترام اختيار الإنسان لدينه دون ضغط أو إكراه، وغير ذلك مما يستشف منه الكثير من التسامح، ولكن عند التطبيق نقض القشتاليون هذه البنود، ولأخذوا يجاهرون بمعاداة المسلمين، ويتقنون في أيديهم لردهم عن دينهم الإسلامي^(١٧٢).

وحفظت المعاهدة - ظاهرياً - معظم حقوق المسلمين، فأكدت على أن النصراني لا يجوز أن يدخلوا مساجدهم، وأنهم لا يحق لهم استخدامهم في أعمال السفرة، أو استخدام ممتلكاتهم، وأن اليهود لن يكون لهم على المسلمين أي سلطة.. ولكن التساؤل الذي يتبادر إلى ذهن هـ: من الذي يضمن تنفيذ كل ذلك ما دام الخصم هو الحكم^(١٧٣).

وأما الأسرى فقد تطرقت إليهم المعاهدة في أكثر من بدء، ولم يحاول الجانب القشتالي إخفاء تحيزه واستهتاره بالمسلمين في هذا المجال كما فعل في المجالات الأخرى،

^(١٧١) نص المادة التاسعة من الاتفاقية الأولى.

^(١٧٢) نص المادتين الثانية عشرة والرابعة عشرة من الاتفاقية الأولى.

^(١٧٣) نص المادتين الثانية عشرة والرابعة عشرة من الاتفاقية الأولى.

قد فرضت المعاهدة على المسلمين إطلاق سراح الأسرى النصراني الذين بحوزتهم طواعية، ودون أي فدية، وذلك حين تسلم المدينة، في حين يتم الإفراج عن الأسرى المسلمين خلال فترة تتراوح بين خمسة أشهر وثمانية أشهر^(٧١).

ونصت المعاهدة على حرية التجارة، وأجازت بنودها للمسلمين الاستيراد والتصدير من المغرب وإليها، بل إن الإسبان تعهدوا بتأمين تجارة المسلمين أثناء ذهابهم وإيابهم مما يوهم بتسامحهم، فالحقيقة هي أنهم كانوا حريصين على مصلحتهم الذاتية وحسب، إذ أن التجارة بين الأندلس والمغرب كانت في هذه الفترة راجحة عظيمة، ولم يكن في مصلحتهم القضاء عليها، لأن ذلك من شأنه أن يؤدي إلى كماد عظيم لا يستطيعون احتماله^(٧٢).

وهكذا، فإن نصوص هذه المعاهدة تدل بوضوح على أن القشتاليين كانوا يعدون العدة لالانقضاض على المسلمين لطردهم من ديارهم، أو إجبارهم على ترك دين آبائهم.

لقد عانى مسلمو الأندلس (المورييسكيون) في ظل تلك الأوضاع الصعبة الكثير الكثير، حيث فرضت عليهم الضرائب الباهظة، وحددت أماكن إقامتهم حتى يسهل القضاء عليهم بسهولة إذا ما فكروا بالثورة أو الانتفاضة، ومن هنا بدأت رحلة التحطيب والبطش والموت لكل من أرك أن يستمر على دينه الإسلامي.

ومما ساعد على اشتداد حمى الاضطهاد الديني ضد المسلمين تعصب الملكة إيزابيلا، وذلك لصلتها برجال الدين، فقد شجع ذلك رجال الكنيسة على المضى قدماً في عمليات التتصير القسري للمسلمين.

وبعد انتفاضة البهازين عام ٩٠٥هـ/١٤٩٩م، وثورة البشراة عام ٩٠٧هـ/١٥٠٩م اتخذت السلطة الإسبانية قراراً بقضي بالسماح لرجال الدين بالتبشير بالديانة المسيحية على المذهب الكاثوليكي داخل مملكة غرناطة، وإذا لم تفلح عمليات التبشير هذه تنفذ عملية التتصير القسري وبشئ الوسائل والأساليب، وقد رافق ذلك إحراق الكتب

^(٧١) حاملة، نص المادة العاشرة من الاتفاقية الأولى.

^(٧٢) حاملة، نص المادة التاسعة والعشرين من الاتفاقية الأولى.

العربية حتى تنقطع الصلة بين الموريسكيين ودينهم ولغتهم. وأُشملت محاكم التفتيش التي أذاقت المسلمين شتى ألوان العذاب، وصنوف الاضطهاد من جلد بالسياط، ومصادرة للأموال، وحرق وتقتيل.

وبخلاصة القول أن المعاهدة لم تكن متكافئة بأي حال من الأحوال، فقد وقعت بين طرفين أحدهما قوي متنفذ، والآخر ضعيف لا يملك من أمره شيئاً، وليس له حول ولا طول، ولذلك فإن ما حدث كان متوقعاً، بل لم يكن متوقعاً غيره. ولأن يزيدنا إلا أسي وحسرة فنذكر ما وقع من شواهد وأحداث بعد تلك المعاهدة، ومع ذلك يجب أن نتذكره لعلنا نتعظ ونهين الظروف التي تجلبنا للوقوع فيما وقعوا فيه.

أما الاتفاقية الثانية (السرية)^(٢٧) فقد وقعت في اليوم نفسه الذي وقعت فيه الاتفاقية العشرية، واشتملت على ست عشرة مادة تحدثت في مجملها عن مكتسبات الطرفين الموقعين عليها، ومن يتأمل مضمون هذه الاتفاقية يترك بسهولة أن القشتاليين انصفوا بالحق والادعاء في حين انصف الأندلسيون بالضعف والهزيمة. ومن ذلك أن الاتفاقية تحدثت طويلاً عن حقوق الملك أبي عبد الله الصغير، ملك غرناطة، وأسببت في ذكر الاستيزازات التي أعطيت له، غير أنها في مقابل ذلك فرضت على الملك وأعوانه وحاشيته أن يعلنوا ولائهم وطاعتهم وإخلاصهم للملكين الكاثوليكين^(٢٨).

وأشارت الاتفاقية إلى حق الملك في بيع أراضيهم وممتلكاته أو رهنها، ولكنها اشترطت أن تكون الأولوية عند البيع أو الرهن للملكين الكاثوليكين^(٢٩).

وسمحت الاتفاقية للملك أبي عبد الله الصغير بممارسة التجارة داخلياً وخارجياً، غير أنها قيدت التجارة الداخلية بينما جعلت الاتجار الخارجي مفتوحاً دون قيود، وكان المقصود من ذلك فتح قنوات الاتصال بين الملك وبين المغرب، الأمر الذي يشجعه على الهجرة إلى هناك، فيخلص الملك الكاثوليكيان منه. وهكذا كان إذ مارسا عليه الضغوط

^(٢٧) انظر الملحق رقم (٢).

^(٢٨) انظر نص المادة الأولى من الاتفاقية الثانية (الملحق رقم ٢).

^(٢٩) نص المادة الثالثة من الاتفاقية الثانية.

المختلفة حتى اضطر إلى مغادرة بلاده وبلاده آبائه وأجداده الذين بنوها وعصروها نحو
قرنين ونصف القرن^{١٧٦}.

^{١٧٦} نص المادتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة من الاتفاقية الثنائية، وكذلك انظر: حشامة، الأندلس:
٦٦٤-٦٦٥.

أ. الغزو البرتغالي للمغرب العربي

انضم البرتغاليون إلى الإسبان في حشد الجيوش الصليبية ضد المسلمين، وبينما كان الإسبان مشغولين بحروبهم ضد مملكة غرناطة الإسلامية، بدأ البرتغاليون بتأييد البابوية ودعم الدول والإمارات الأوروبية والفرسان الأوروبيين بغزو المغرب العربي، وكان هدفهم هو إضعاف المسلمين اقتصادياً وبالتالي إضعافهم عسكرياً عن طريق تحويل طرق التجارة من ساحل غانة وسائر غرب إفريقيا عن طريق المغرب العربي الإسلامي، ومن ثم مهاجمة المسلمين في غر دارهم.

ولذلك اهتم البرتغاليون بالملاحة وعلوم البحار وبناء الأساطيل التي كانت سفنها ترفع على ساريتها صورة الصليب. وكان هدفهم القيام بحركة اكتشافات جغرافية واسعة تؤدي إلى ضرب تجارة المسلمين والاتفاف حول البلاد الإسلامية، والوصول إلى مملكة الحبشة والتحالف مع ملكها المسيحي ضد المسلمين، وتطويق المسلمين شهيداً لاحتلال مكة المكرمة والمدينة المنورة وبيت المقدس، وفرض السيطرة الصليبية على المشرق الإسلامي، وذلك بدعم من البابا الذي ظل يحث أوروبا والفرسان الأوروبيين على تعزيز النشاط البرتغالي والإسباني.^(٩٧)

وقد تجلت الروح الصليبية لدى البرتغاليين في نشاطات الأمير البرتغالي هنري الملاح (٧٩٧-٨٦٥هـ/١٣٩٤-١٤٦٠م)، وهو شقيق ملك البرتغال، وكان يحمل الصليب على ظهره. والجدير بالذكر أن هذا الصليبي حتى العظم - كما يقال - أمضى نصف قرن من حياته في محاربة المسلمين عسكرياً واقتصادياً، وقد جمع من حوله الفرسان الصليبيين القارين من ضربات المسلمين في المشرق وألف جماعة منهم عرفت باسم (جماعة المسيح)^(٩٨).

وكان أول مشاريع هنري الملاح احتلال مدينة سبقة المغربية، حيث بسط حماية البرتغاليين عليها سنة ٨١٨هـ/١٤١٥م، ثم حاول الاستيلاء على طنجة، غير أن

^(٩٧) حنامة، الأندلس، ص ٩٨٧.

^(٩٨) رضوان، جهود العثمانيين لإفلات الأندلس، ص ٣١-٣٢، حنامة، الأندلس، ص ٩٨٧.

أسروته، وذلك سنة ٨٢٢هـ/١٤٢٠م، ثم أطلق سراحه بعد أن تعهد بالانصياع من سبته لكنه لم يحترم هذا التعهد^(٧٩).

وزدادت الهجمة الصليبية ضد السواحل المغربية بقيادة البرتغال بعد تمكن المسلمين في المشرق من فتح القسطنطينية سنة ٨٥٧هـ/١٤٥٣م، فقد جهز ملك البرتغال ألفونسو الخامس استجابة لدعوة البابا بيوس الثاني (٨٦٣-٨٦٩هـ/١٤٥٨-١٤٦٤م) أمطولاً كبيراً احتلوا بوساطته المنطقة بين سبتة وطنجة سنة ٨٦٢هـ/١٤٥٧م، ثم احتلوا أسفي سنة ٨٧٤هـ/١٤٦٩م، ثم أصيلا بعد عامين، ثم العرائش وطنجة سنة ٨٧٦هـ/١٤٧١م. وبذلك تم للبرتغاليين إحكام الحصار حول المعبر الجنوبي لشبه الجزيرة الأيبيرية، وقطعوا الاتصال بين المغرب ومملكة غرناطة الإسلامية^(٨٠). وهكذا انسحب البرتغاليون بشكل فعال بالتعجيل في سقوط غرناطة بأيدي الإسبان، إذ لم يعد بإمكان المغاربة المسلمين بعد أن قطعت طريقهم إلى الأندلس عبر مضيق جبل طارق مد يد العون لإخوانهم المسلمين فيها.

ويشار هنا إلى أن البابا إسكندر السادس (١٤٩٢-١٥٠٣م) رعى توقيع اتفاقية بين إسبانيا والبرتغال سنة ٩٠٠هـ/١٤٩٤م قسم المغرب بموجبها إلى منطقتين، تقع الأولى شرق حجر باديس المغربية ويتولى فيها الإسبان مهمة الاستيلاء والسيطرة، وتقع الثانية إلى الغرب منها وقد أطلقت يد البرتغاليين فيها^(٨١).

وخلاصة القول في معاهدة تسليم غرناطة أنها كانت بين طرفين أحدهما قوي منتصر، والثاني ضعيف منكسر، وما يقال عن تلك المعاهدة باتفاقيتها وطرفيها لا يمكن أن يقال غيره عن اتفاقيات أو سلو السرية والعلنية التي وقعتها الفلسطينيين الضعفاء بافتقارهم إلى نصرة إخوانهم العرب المسلمين الحازمة مع ربيبة الصليبيين، وهو ما ستتناوله فيما بعد.

(٧٩) الناصري، الاستقصا، ج ١، ص ١٩٢، العلاقات بين الشرق والغرب، ص ٢٥٧.

(٨٠) المقطري، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، ص ٢٦٢-٢٦٤ رضوان، جهود العثمانيين

لإفلال الأندلس، ص ٣١-٣٣ الجمل، المغرب العربي الكبير في العصر الحديث، ص ١٩.

(٨١) حشاملة، الأندلس، ص ٩٨٩.

توجهت أنظار الملكين الكاثوليكين بعد احتلالهما لمدينة غرناطة إلى المغرب العربي الذي كان ممزقاً بين الوطاسيين في فاس والحفصيين في تونس، والبربر في الجزائر، وهو الوضع الذي مائل الوضع في الأندلس أيام ملوك الفتنة، وبمائل وضع العالم العربي اليوم. فحالة الضعف والتمزق التي كانت سائدة في المغرب العربي أدت شهية الإسبان ومطامعهم الصليبية، وقد كانت الملكة إيزابيلا من أشد المتحمسين لسحق المسلمين، حتى أنها أوصت قبل وفاتها عام ٩١٠هـ/١٥٠٤م بأن تقوم خليفاتها الأميرة خوانا وزوجها الأمير فيليب بمتابعة احتلال إفريقيا، ومحاربة (الكفار) أي المسلمين واليهود^(٨٢).

وقد سارع الإسبان إلى تنفيذ وصية الملكة الكاثوليكية المنعصبة، فشنوا حرباً صليبية على السواحل المغربية، وقتلوا آلاف المسلمين، واحتلوا مدينة مليلة سنة ٩١١هـ/١٥٠٥م. وفي عام ٩١٤هـ/١٥٠٨م احتلوا حجر بلايس في ساحل المغرب الأقصى، ثم سقط في أيديهم المرسى الكبير ووهران وبجاية وميناء طرابلس الذي احتلوه عام ٩١٦هـ/١٥١٠م.

وكانت الحروب التي شنها الملكان الكاثوليكيان ضد المسلمين في الأندلس قد استفدت الكثير من قوتيهما العسكرية، وتعزيز هذه القوة استعداداً لمواصلة ضرب المسلمين في كل مكان استقهما الخبراء والعلماء من جميع أنحاء أوروبا، خاصة فرنسا وإيطاليا وألمانيا لإدخال التحسينات على المدفعية، وصناعة الطلقات والبارود، وشتى أنواع الأسلحة التي كانت معروفة في ذلك الوقت^(٨٣).

وبعد أن أدخل الملكان الكاثوليكيان التحسينات المطلوبة، والإصلاحات الضرورية على الجيش الإسباني، وذلك عام ٩٠٩هـ/١٥٠٣م، قاما بإنشاء جيش آخر من الصليبيين، فقد استقما أفراداً من إيطاليا، والبرتغال، وألمانيا، وفرنسا، وإنجلترا، وسويسرا. وأوكلت

^(٨٢) قناصري، الاستقصا، ج ٤، ص ١٥٠-١٥٦، حاملة، الأندلس، ص ٩٩١.

^(٨٣) حاملة، الأندلس، ص ٩٨٤.

لهذا الجيش الصليبي مهمة شن الغارات المتلاحقة على بلاد المغرب العربي لضرب القوى الإسلامية هناك^(٩١).

^(٩١) حنابلة، الأندلس، ص ٩٨٤.

الصلبيون في المشرق

اختلعت النواقع الدينية للحروب الصليبية مع الأطماع السياسية والاقتصادية للممالك الأوروبية، كما اختلعت مع الأحوال التي كانت سائدة في أوروبا وفي البلاد الإسلامية قبل بداية هذه الحروب، فقد كانت الكنيسة الكاثوليكية ترغب في بسط سيطرتها على الكنيسة الشرقية تحت ستار مساعدة الإمبراطور البيزنطي في حربه ضد المسلمين ولا سيما بعد هزيمته أمام المسلمين في معركة ملاذكرد سنة ٤٦٦هـ/١٠٧٣م. وقد استغلت الكنيسة في سبيل ذلك الشعور الديني لدى المسيحيين لحنهم على الحج إلى الأراضي المقدسة فأعلن البابا أنه سيمنح الغفران لكل من يشارك في هذه الحروب ضد المسلمين في المشرق والمغرب. كما وجدت البابوية في هذه الحروب فرصة لتوجيه الفرسان الأوروبيين الذين كان يحارب بعضهم بعضاً لمحاربة المسلمين، وأغرت هؤلاء الفرسان بإقامة إقطاعات لهم في بلاد المسلمين، كما استغل البابا قوة النورمان الذين استطاعوا انتزاع صقلية من العرب سنة ٤٦٥هـ/١٠٧٢م وأصبحوا بذلك على مقربة من بلاد المسلمين. وقد اتضحت السياسة البابوية في الخطاب الذي ألقاه البابا أوربان الثاني في كليرمنت في جنوب فرنسا عام ١٠٩٥م داعياً الفرسان الأوروبيين إلى حمل الصليب ضد المسلمين، وحثاً إياهم على انتزاع الأراضي المقدسة وسائر أراضي المسلمين لأنفسهم، وقد اتلفت هذه الدعوة مع أطماع الفرسان في إنشاء إمارات لهم في أراضي المسلمين.

وساهمت المدن التجارية الإيطالية في هذه الحروب بتقديمها السفن والمساعدات المالية طمعاً في السيطرة على تجارة الشرق الغنية، وقد قرآن هذا مع سوء الأحوال في البلاد الأوروبية الناجم عن ظلم الإقطاعيين وانتشار الفقر والمرض والقحط، وهكذا فقد كان لكل من شارك في الحرب الصليبية لطماعه الخاصة.

أما أحوال المسلمين في المشرق والأنتس فكانت على ما هي عليه من تفكك وتجزئة تغري الصليبيين بالمضي قداماً في مشروعهم، وهكذا جرى الإعداد للمشروع الصليبي مسبقاً^(٨٥).

ولم تكن رحلة بطرس الناسك إلى الأراضي المقدسة سوى الشرارة التي لهمت هذه الحروب التي اقتضت بالكثير من القطائع الوحشية التي ارتكبتها الأوروبيون ضد المسلمين بل وضد المسيحيين الشرقيين، حتى أن الحملة الصليبية الرابعة لم توجه إلى الأراضي المقدسة بل وجهت إلى القسطنطينية وترتب عليها احتلال هذه المدينة وإنشاء إمارة لاتينية فيها.

وقد قام بطرس الناسك (Pierre l'Ermite)؛ (١٠٥٠-١١١٥م) الراهب الفرنسي المتعصب بزيارة للقدس عام ١١٤٦هـ/١٠٥٤م، فقد زعم أن السلاجقة^(٨٦) يعاملون الحجاج المسيحيين الذين يؤمنون ببيت المقدس بظلم وقسوة وخشونة، ولا يد من تخليص الأراضي المقدسة منهم^(٨٧). والحقيقة أن السلاجقة لم يكونوا كذلك قد انتهجوا السياسة الوافية التي استقرت منذ الفتح الإسلامي لهذه البلاد تجاه النصارى واليهود، ذلك أنهم بموجب تعاليم الدين الإسلامي يؤمنون بالله واحد، ولكنهم انصرفوا عن الصراط المستقيم، وعن الكتب المقدسة: التوراة والإنجيل، ولذلك تعامل معهم المسلمون باعتبارهم مؤمنين ضالين، واقتصر هذا التعامل على أخذ الجزية، بينما ترك لهم ممارسة شعائرهم الدينية بلا عائق^(٨٨)، بل إن الفتح الإسلامي لبلاد الشام بما فيها القدس كان المخلص للنصارى الأرثوذكس والمونوفيسيين القائلين بأن المسيح طبيعة واحدة، والسطوريين والغريغوريين من مظاهر الكنيسة البيزنطية، الدينية منها والضرائية^(٨٩).

^(٨٥) عاشور، أوروبا المعصور الوسطى، التاريخ السيلسي، ج ١، ط ٣، ص ٤٥١، ٤٥٣.

^(٨٦) بدأ عهد السلاجقة بدخول طغرل بك، السلجوقي بغداد عام ٤٤٦هـ/١٠٥٤م. طغرل: فرنريك ج.

بيك، تاريخ شرقي الأردن وقبائلها، ص ١٦٨.

^(٨٧) فرنريك بيك، تاريخ شرقي الأردن وقبائلها، ص ١٦٨.

^(٨٨) زابوروف، الصليبيون في المشرق، ص ٢٤.

^(٨٩) المرجع نفسه، ص ٢٤-٢٥.

تقد كان بإمكان الحجاج النصارى أن يزوروا القدس وغيرها من الأراضي المقدسة دون أن يتعرض مشاعرهم الدينية للإهانة من أي نوع بعكس ما ادعاه بطرس الناسك مما يدل على أن هناك أسباباً أخرى وراء شن الحروب الصليبية لا يتسع المقام لبسط تفاصيلها، ولكنها تقتصر في أن الغرب النصارى استهدف من وراءها ضرب الإسلام وحضارته في محاولة لإضعافه ثم القضاء عليه.

خرج بطرس الناسك في طريقه إلى بلاده عائداً من زيارته للقدس على البابا أوربان الثاني (١٠٨٨-١٠٩٩ م) الذي استمع إلى مزاعم بطرس عما يلاقيه النصارى من اضطهاد في الشرق، وأمر الناسك بنشر الدعوة في أنحاء أوروبا لإعلان الحرب المقدسة لتخليص القدس وفلسطين من أيدي المسلمين. بل بانر أوربان الثاني نفسه إلى تنظيم حملة جماهيرية على الشرق، فقد زار فرنسا وعقد في تشرين الثاني عام ١٠٩٥ م مجعاً لرجال الدين في مدينة كليرمون فران الفرنسية حيث توافد آلاف الفرسان وعدد كبير من ذوي الألقاب الدينية منهم (٣٠٠) أسقف، و(٤٠٠) من رؤساء الأديرة، ومن هناك أطلق البابا أوربان الثاني النداء الذي دعا الغرب النصارى إلى الحرب الصليبية في الشرق^(١٠٠).

لقد ألقى أوربان الثاني خطاباً نارياً استمع إليه الفرسان والأساقفة والفلاحون الذين كانوا يتضورون جوعاً في أوروبا، وكذلك العبيد المعذبون على أيدي أسيادهم الإقطاعيين، وقد وجد هؤلاء في وعود البابا حافزاً لتحقيق مآربهم الدنيوية تحت الغطاء الديني الذي فرد أوربان، حيث أكد أن من يتجند للدفاع عن الصليب يغفر من ذنوبه ومسيئاته^(١٠١).

وعلى الأثر توجهت جموع الصليبيين بقيادة بطرس الناسك وولتر المفلس في غير نظام نحو الشرق عن طريق البلقان حيث عانت فيها فساداً، ونشبت هذه الحملة قبل وصولها إلى الأراضي المقدسة.

وكانت هذه الحملة التي تألفت من نحو ثلاثمائة ألف من أخطر المجرمين وأوحش الناس في أوروبا قد بدأت زحفها نحو الشرق في عام ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م بقيادة بطرس

(١٠٠) زيبوروف، الصليبيون في الشرق، ص ٤١-٤٢.

(١٠١) المرجع نفسه، ص ٥٥-٥٨ فريدريك بيك، تاريخ شرقي الأردن، ص ١٦٩.

التاسك، وكان أول من تعرض لفظاتهم هم اليهود في حوض نهر الراين بدعوى أنهم صلبوا ابن الله، فساموهم أنواع العذاب من قتل وضرب ونهب ومطب^(٩٢). وتوجهت حملة أخرى وهي التي عرفت بالحملة الأولى إلى الشرق بقيادة عدد من الأمراء الصليبيين أشهرهم جودفري أمير التورين وأخوه بلدوين وريموند أمير طولوز وبوهمند النورماندي وابن أخيه تنكرد، ووصلت هذه الحملة في عام ٤٩١هـ/ ٢١ تشرين الأول عام ١٠٩٧م إلى أنطاكية التي تقع على بعد اثني عشر ميلاً من البحر الأبيض المتوسط داخل الأراضي السورية. وبعد سلسلة من المعارك تمكنت القوات الصليبية من احتلال المدينة، ثم احتلوا مدينة معرة النعمان في عام ٤٩٢هـ/ ١١ كانون الأول عام ١٠٩٨م ونهبوا المدينة وأبائوا سكانها، وارتكبوا فيها لفظائع، فقد ذكر أحد شهود العيان من المشاركين في هذه الحملة: "كان الإفرنج يقتلون كل مسلم، سواء كان رجلاً أم امرأة، حينما يجدونه"^(٩٣).

وقد أمر بوهمند (Bohemund Tarentum) بأن يجتمع سكان المدينة مع نسائهم وأولادهم وأموالهم في قلعة المدينة واعداء الإنقاذهم من الموت، وعندما اجتمعوا انتزع كل ما معهم من أموال، وأمر بقتل بعضهم، ويسوق الآخرين إلى أنطاكية ليبيعهم كعبيد^(٩٤).

وتدافع الصليبيون بعد احتلالهم أنطاكية جنوباً نحو القدس في طابورين كبيرين، أحدهما بقيادة ريموند، كوفت تولوز (Raymond of Toulouse) الذي سار بمحاذاة جبال النصيرية، والثاني بقيادة جودفري دي بويون (Godfrey of Bouillon) الذي سار بمحاذاة الساحل. وكانت أوضاع المسلمين في المنطقة مشابهة لتلك التي كانت سائدة في الأندلس، وشجعت الصليبيين على اقتحام بلادهم، فالأمراء المسلمون في خلافت دامية، وبعضهم يشن الحرب ضد بعضهم الآخر وخاصة بين رضوان بن تنش صاحب حلب، ودياق صاحب دمشق اللذين كان الخصام بالغ الحدة بينهما. وفي الوقت نفسه استغل الفاطميون الوضع وشنوا حرباً ضد السلاجقة، واستولوا على القدس في عام ٤٩٢هـ/ آب ١٠٩٨م.

^(٩٢) فريديك بيك، تاريخ شرقي الأردن، ص ٢٦٩.

^(٩٣) زيبوروف، الصليبيون في الشرق، ص ١١٠-١١١.

^(٩٤) المرجع نفسه، ص ١١٠-١١١.

وفي ظل هذا التمزيق أثر حكام طرابلس وبيروت وصيدا وصور من العرب المسلمين تجنب الاحتكاك مع الصليبيين^(٩٤).

اقترب الصليبيون من القدس في عام ١١٩٣هـ/ فجر الملبع من حزيران سنة ١١٩٩م، وحاصروها وأخذوا يقنفوتها بالحجارة والسهام وجذوع الأشجار ورزم القنص المتهبة، وتمكنوا من اقتحامها في ١٥ تموز من السنة نفسها تحت وابل من الحجارة والسهام والقذائف المحشوة بالمواد السريعة الاشتعال التي نهال بها الفاطميون على رؤوس الصليبيين، ومع ذلك تمكن الصليبيون الذين انقضوا بضوة ووحشية وضراوة على المدينة من دخولها حيث ارتكبوا في أهلها من القذائع ما تقشعر له الأبدان^(٩٥).

لقد فاق ما فعله الصليبيون في القدس ما فعله أقرانهم الصليبيون في بربنشر بالأندلس، إذ يذكر شهود عيان أنهم ذبحوا في المسجد الأقصى عشرة آلاف شخص، ومما له دلالات كبيرة في هذا الشأن أن الفرسان الصليبيين كانوا يقيمون صلواتهم أمام قبر السيد المسيح ثم ينتقلون فوراً إلى الأعمال الدموية، فيذبحون الرجال والنساء والأطفال والشيوخ والأصحاء والمقعدين، ويسحقون رؤوس الرضع على الحجارة، وينهبون كل ما يجدونه. وفضلاً عن المسلمين سقط يهود القدس ضحية لخطود الصليبيين، فقد اجتمعوا في كنيس كبير، وفيه أبادهم الصليبيون عن بكرة أبيهم، ثم أحرقوا الكنيس بمن فيه^(٩٦).

وعندما شاع خبر احتلال القدس إلى أسماع البابا بانكل الثاني (١١٩٣-١١٩٨هـ/ ١١٩٩-١٢١٨م)، دعا إلى ضرورة مكافأة الكنيسة الكاثوليكية بصورة مناسبة لأثنا هي التي بادرت إلى هذه الحملة الصليبية. وهذا الأمر له أيضاً دلالة كبيرة غير الخافية.

ولسفر الحملة الصليبية الأولى عن إنشاء إمارات صليبية في الرها وأنطاكية وطرابلس وبيت المقدس، ومن الواضح أن نجاح الصليبيين في إقامة كيان لهم في بلاد الشام إنما يعود إلى انقسام المسلمين وغياب وحدتهم.

^(٩٤) زابوروف، الصليبيون في الشرق، ص ١١٩؛ فردريك بيك، تاريخ شرقي الأردن، ص ١٧٠.

^(٩٥) زابوروف، الصليبيون في الشرق، ص ١٢٢.

^(٩٦) المرجع نفسه، ص ١٢٣.

وكان من الضروري أن يؤدي هذا التحدي الصليبي إلى رد فعل إسلامي تمثل في حركة الجهاد التي بدأها نور الدين زنكي وتوجّها باستعادة إمارة الرها سنة ١١٤٤هـ، وهو الحدث الذي أدى إلى إثارة الخوف والفرع في صفوف الصليبيين مما أدى إلى إرسال حملة صليبية ثانية.

وبدأت الاستعدادات في أوروبا لبدء الحملة الصليبية الثانية عام ٥٤٢هـ/١١٤٧م، ففي ذلك العام اجتمع عدد من الأعيان القرميسين بمشاركة مندوبين من ألمانيا وإسبانيا وإيطاليا وإنجلترا وقرروا أن تنطلق هذه الحملة في أواسط أيار من عام ١١٤٧م بقيادة كونراد الثالث ملك ألمانيا ولويس السابع ملك فرنسا. غير أن هذه الحملة فشلت فشلاً ذريعاً في تحقيق أهدافها في الشرق بسبب الخلافات بين قادتها وبسبب الهجمات القوية التي شنّها المسلمون ضدها^(١٢٨). والتجّاح الوحيد الذي حقّقته هذه الحملة هو قيامها بمساعدة ملك البرتغال في احتلال لشبونة من أيدي المسلمين في الأندلس أثناء توقفها للتزود بالمؤن في ميناء (بورتو) البرتغالي، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

وما يجب التأكيد عليه باستمرار هو أن الصليبيين لم ينجحوا في هجماتهم ضد المسلمين إن في المشرق وإن في الأندلس إلا في زمن الضعف والتمزق الإسلاميين، فالصليبيون نجحوا في الأندلس عندما اتهازت الدولة الإسلامية الواحدة وصارت دويلات متناحرة أخفقت في استعادة لحيّتها. والصليبيون نجحوا في المشرق عندما توزع التّولة الإسلامية الواحدة أمراء مسلمون عديدون تتلّحروا فيما بينهم، وخلفوا الجهاد في سبيل الله وراء ظهورهم، واستعانوا على بعضهم بأعداء الإسلام المترصّنين بهم جميعاً. ولكنهم، أي المسلمين، كانوا في أثناء وحيّتهم، وتمسّكهم بدين الله، وحرصهم على نصرته، أعزاء في بلادهم، قادرين على سحق أعدائهم وإن كانوا قلة، وأعدائهم كثر يمتلكون أسلّاب القوة. والشواهد على ذلك كثيرة معروفة، فعشرة آلاف من المشرّكين لم يصمدوا أمام بضعة مئات في معركة بدر، والإمبراطورين الرومانيّة والفارسيّة لم تصمدا أمام دولة الإسلام

(١٢٨) زابوروف، الصليبيون في الشرق، ص ١٧٧ وما بعدها.

الناشئة، والمشرق الإسلامي في زمن الحروب الصليبية أصبح ذا شأن عندما تمكن صلاح الدين الأيوبي من توحيد^(١٩٩).

لقد وجد صلاح الدين مصر وهماً كبيراً من بلاد الشام وبلاد ما بين النهرين في حقبة قصيرة، وصار أقوى حاكم في العالم الإسلامي وكان أول ما فعله هو تنظيم الشؤون المالية لدولته، وتوجيه مواردها كافة إلى الجهاد ضد الصليبيين، مستهدفاً في المقام الأول القضاء على مملكة القدس الصليبية، وبدأ ضغط المسلمين المنتظم على الصليبيين منذ النصف الثاني من ثمانينات القرن الثاني عشر الميلادي، وأتاح ذلك لصلاح الدين اقتحام المقاطعات الداخلية من مملكة القدس، ثم اشتبك مع الصليبيين في معركة حطين الخالدة في عام ٥٨٣هـ/٤ تموز ١١٨٧م حيث حقق المسلمون بانتصارهم نصراً مؤزراً مما مهد لطرد الصليبيين من القدس، فقد حاصرتها قوات صلاح الدين في النصف الثاني من شهر أيلول عام ١١٨٧م، وفي الثاني من تشرين الأول عام ١١٨٧م استعاد المسلمون المدينة، وعادت رايات السلطان الصفراء تخفق فوقها باعتزاز^(٢٠٠).

ويجب هنا التأكيد على حقيقة تاريخية بالغة الأهمية، وهي أن مسلمي الأندلس ساهموا مساهمة فعالة في تحرير القدس من أيدي الصليبيين، ذلك أن أعداداً كبيرة من أولئك المسلمين ظلوا في مدنها بعد سقوطها بيد الإسبان، واستمروا على دينهم يمارسون شعائرهم الإسلامية سراً في ظل الحكم الإسباني، وقد عرف هؤلاء باسم (المدجنين)، وقد انخرط هؤلاء في الحملات الصليبية الموجهة إلى المشرق الإسلامي عبر إسبانيا، وهناك أصبحوا يعملون أعمالاً لصلاح الدين الأيوبي، يزودونه بتحركات الصليبيين، وبمواطن قوتهم وضعفهم مما مكنه من تحقيق النصر الحاسم عليهم في معركة حطين.

وكان دافع المدجنين إلى مساعدة صلاح الدين الأيوبي في حربه ضد الصليبيين في المشرق هو فئاعهم بأنه سيقرده المسلمون - بعد أن يحقق النصر - إلى إسبانيا ليحرر

^(١٩٩) قائد مسلم كردي الأصل، برز عندما كان والده أيوب وعمره أسد الدين شيركوه يشغلان مناصب رفيعة في بلاط عماد الدين زنكي، انظر: زايوروف، الصليبيون في الشرق، ص ١٨٨-١٨٩.

^(٢٠٠) زايوروف، الصليبيون في الشرق، ص ١٨٩-١٩٢.

منهم من أيدي القسطنطينيين، هذا إلى جانب دافع آخر هو الجهاد في سبيل الله ونصرة الإسلام ضد أعدائه.

والجنير بالذكر أن كثيرين من المدجنين أقاموا في المشرق، خاصة في القدس المحررة، وقد عرفوا باسم المغاربة، وهي المغاربة وكذلك (باب المغاربة) الموجودان في القدس الشريف إنما سميا باسمهم.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن صلاح الدين الأيوبي لم ينتقم بنجح الصليبيين لما فعلوه بالمسلمين عندما احتلوا القدس قبل نحو مائة عام، وهذه ميزة لحضارة الإسلام على غيرها من الحضارات، فقد سمح لسكان القدس النصارى بمغادرة المدينة خلال أربعين يوماً، فغادروها بعد أن دفعوا فدية لتلك دون أن يلحق بهم أي أذى، أو تسبب منهم قطرة دم^(١٠٦).

كان وقع استعادة القدس إلى حظيرة الإسلام شديداً على نصارى الغرب، فالبابا أوربان الثامن توفي من الصدمة، ودعا خليفته البابا غريغوريوس الثامن إلى شن حملة صليبية جديدة، فقد أصدر منشوراً بابوياً في ٢٩ تشرين الأول عام ١١٨٧م أمر فيه الكاثوليك بالصيام يوم الجمعة من كل أسبوع لمدة خمس سنوات، وبالامتناع خلال هذه المدة عن أكل اللحم مرتين في الأسبوع، والدعوة إلى الحرب للصليبية. وقد تلقف هذه الدعوة البابا كليمنت الثالث الذي خلف غريغوريوس بعد شهرين، حيث وجه الكاردينالات إلى التطواف مشياً على الأقدام في أنحاء فرنسا وإنجلترا وألمانيا لبث الحماس النجفي، وتجنيد النصارى للمشاركة في حملة صليبية جديدة^(١٠٧). والحقيقة أن معركة حطين أدت إلى تمزق الصليبيين وخسارتهم لمعظم قراصينهم بحيث سارعت أوروبا إلى إرسال حملة جديدة هي الحملة الثالثة.

وبدأت الحملة الصليبية الثالثة عام ٥٨٥هـ/١١٨٩م بمشاركة بلدان أوروبا الغربية، غير أن هذه الحملة أمام صعود المسلمين بقيادة صلاح الدين الأيوبي لم تحقق

(١٠٦) زابوروف، الصليبيون في الشرق، ص ١٩٢.

(١٠٧) المرجع نفسه، ص ١٩٢-١٩٤.

أهدافها، بل منيت في حروبها معه بخسائر فائقة، واضطر ملك إنجلترا ريتشارد الأول (قلب الأسد) إلى التفاوض مع صلاح الدين مما أفضى إلى عقد صلح سعة في عام ٥٨٩ هـ/ الثاني من أيلول سنة ١١٩٢م^(١٠٦). وعلى الرغم من إخفاق الحملة الصليبية الثالثة لم تفتر عزيمة الصليبيين، بل تعالت في الغرب من جديدة صيحة بابوية: "إلى الشرق".

أرسل البابا اينوسنت الثالث (٥٩٥-٦١٣هـ/١١٩٨-١٢١٦م) في شهر آب وأيلول من سنة ٥٩٥هـ/١١٩٨م رسائل بليغة إلى فرنسا وألمانيا وإنجلترا وإيطاليا والمجر دعا فيها إلى الاشتراك في الحملة الصليبية الرابعة، وأمر جميع رجال الدين بأن يطالبوا بمشاركة الكاثوليك في الحملة دون أي تردد أو شروط. كما أعلن البابا عفران الخطايا على أوسع نطاق، وأن الخلاص الأبدي سيكون جزاء كل من يساهم في الحملة بالنفس أو بالمال. غير أن هذه الحملة غيرت وجهتها فبدلاً من التوجه إلى القدس سارت معظم القوات للمشاركة فيها إلى القسطنطينية، عاصمة بيزنطة واجتاحتها، وذلك في سنة ٦٠١هـ/ ١٢ نيسان عام ١٢٠٤م، وقد فلفت الجرائم الوحشية التي ارتكبتها الصليبيون في القسطنطينية كل ما سبقها في التاريخ، ولها داس الصليبيون رايانهم الدينية، وأظهروا أنهم ليسوا حماة أتقياء للدين المسيحي، وإنما مجرد معاقرين جشعين وغزاة لا مبدأ لهم تسشروا بالدين للقيام بمشاريع انحصائية على حساب دولة الإسلام أولاً، وحساب كل من يخالف الكنيسة الكاثوليكية ثانياً^(١٠٧).

وقد فشلت الحملات الصليبية اللاحقة الخامسة والسادسة والسابعة في حماية الكيان الصليبي في بلاد الشام، فقد وجهت الحملتان الخامسة والسابعة ضد مصر باعتبارها مركز النقل في القوة الإسلامية بينما وجهت الثامنة إلى تونس. وانتهى الأمر بزوال الكيان الصليبي نهائياً من بلاد الشام سنة ١٢٩١م على أثر سقوط عكا آخر معاقلهم في يد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون، غير أن الروح الصليبية ظلت قائمة في أذهان الأوروبيين في القرون اللاحقة.

(١٠٦) زابوروف، الصليبيون في الشرق، ص ٢١١.

(١٠٧) المرجع نفسه، ص ٢١١ وما بعدها.

وخلص القول أن الهجمة الصليبية على المشرق الإسلامي شكلت صورة مهمة في تاريخ العلاقات بين الغرب الكاثوليكي وهذه المنطقة، وكانت هذه العلاقات تنسم على الأغلب بالمواجهة، وفي هذا السياق نشأ في قلب الكاثوليكية نظام خاص يجند الحروب الاغصائية التي يشنها الغرب النصراني ضد الأمة الإسلامية، ويؤلف ذلك بمجملة ما يمكن أن نسميه اصطلاحاً لأيدولوجية الحروب الصليبية القائمة على العداء والكره للمسلمين.

وقد طبقت الأيدولوجية الصليبية ضد المسلمين حيث استمرت الحرب في القرن الرابع عشر ضد المماليك، وفي القرنين الخامس عشر والسادس عشر ضد العثمانيين، وعلى امتداد القرون كانت السياسة الشرقية للنول الأوروبية تتلون بلون تلك الأيدولوجية.

وأصبح الغرب النصراني منذ مطلع القرن الرابع عشر الميلادي يصوغ مشاريع جديدة لإخضاع الشرق الإسلامي واحتوائه، ومن تلك العمل على اعتناق المسلمين للمسيحية بصورة سلمية، وقد دعا إلى ذلك صراحة الشاعر والفيلسوف الإسباني ريمون لول في دراسة له بعنوان: "جدال المسيحي ريمون مع المسلم عمر"، وقام لهذه الغاية برحلة تبشيرية إلى تونس سنة ١٣٠٧م.

وشن الصليبيون في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين حملات صليبية جديدة ضد العثمانيين الذين تمكنوا من فتح شبه جزيرة البلقان، وهدنوا أوروبا الشرقية الجنوبية، وكان كثيرون من بابوات روما ينأثرون إلى الحملات الصليبية ضد العثمانيين، ويدعمون الانتقادات الصليبية الأوروبية بالأموال والمقاتلين.

والجدير بالذكر هنا أن القوات الإسلامية بقيادة العثمانيين نجحت في التصدي للحملات الصليبية المتكررة ضدها، وفتحت القسطنطينية في سنة ٨٣٩هـ / ٢٩ أيار ١٤٥٣م على يد السلطان العثماني محمد الفاتح، غير أن لشغال العثمانيين المسلمين بحروبهم ضد النصارى على الجبهة الشرقية حال دون تقديمهم يد العون لمسلمي الأندلس، مما جعل الأحداث المؤلمة تتسارع هناك، وتنتهي بسقوط غرناطة في عام ٨٩٧هـ / ١٤٩١م.

ولم تفتت الحروب الصليبية منذ أوائل القرن السابع عشر أشكالاً جديدة، فبالإضافة إلى القوة العسكرية، عمل الصليبيون على إضعاف المسلمين بالسيطرة على التجارة، وعلى الموارد الاقتصادية إلى غير ذلك من أساليب، وربما كان من بدايات ذلك تلك الدعوة التي نادى بها الفيلسوف الإنجليزي الشهير بيكون، حيث ألف كتاباً عام ١٠٣١هـ/ ١٦٢١م بعنوان: (حوار حول الحرب المقدسة) أشار فيه إلى ضرورة إضفاء الصفة القانونية على الحروب الاستعمارية ضد المسلمين منكرعاً بالحجج الدينية الصليبية ذاتها.

الحرب الصليبية مستمرة

بدأت الحروب الصليبية الاقتصادية ضد المسلمين قبيل سقوط غرناطة في أيدي
النصارى، ففي سنة ٨٩٣هـ/١٤٨٧م بدأت محاولات البرتغاليين المتعصبين للمذهب
الكاثوليكي للسيطرة على العالم الإسلامي، حيث جهز ملك البرتغال خوان الثاني في تلك
السنة حملة بحرية من ثلاث سفن بقيادة بارثولوميو دياز وأمره بإيجاد طريق بحرية تؤدي
إلى الهند^(١٠٠٤) بهدف السيطرة على تجارتها التي كانت رائجة آنذاك، وهي تجارة التوابل
بأنواعها، التي كان يسيطر عليها المسلمون بهدف إضعاف المسلمين اقتصادياً وعسكرياً،
وهكذا كانت الاكتشافات الجغرافية استمراراً للحروب الصليبية إذ لم تكن هذه الاكتشافات
في الشرق إلا حلقة من حلقات تلك الحروب، غير أن تلك الحملة فشلت في تحقيق هدفها
إلا أنها اكتشفت طريق رأس الرجاء الصالح^(١٠٠٥) إلى الشرق، مما يعد من أعظم
الإنجازات في مجال الريادة والاستكشاف خلال التاريخ البشري كله^(١٠٠٦). وانطلقت حملة
برتغالية جديدة سنة ٩٠٣هـ/١٤٩٧م أعدها ملك البرتغال عمانوئيل الأول (١٤٩٥-
١٥٢١م) بقيادة فاسكو دي غاما (Vasco de Gama) الذي عُيِّن دياز مساعداً له. وقد
وصلت هذه الحملة إلى الهند في سنة ٩٠٤هـ/أيار من سنة ١٤٩٨م^(١٠٠٧)، وكان شعار
البرتغاليين في آسيا "صداقة وود للمسيحيين وحرب لا هوادة فيها مع المسلمين"^(١٠٠٨).

وبعد أن وصل فاسكو دي غاما إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح اضطر
السلطان العثماني بايزيد الثاني إلى مراقبة تحركاته، لأن الأسطول البرتغالي أصبح يشكل
خطراً حقيقياً على أطراف الجزيرة العربية والأماكن المقدسة في الحجاز^(١٠٠٩). وبذلك
انشغل السلطان العثماني عن مد يد العون للمسلمين في الأندلس الذين استغاثوا به بعد
سقوط غرناطة في يد الملكين الكاثوليكين.

^(١٠٠٤) قيسي، المجابهة البرتغالية - العثمانية، ج ١، ص ١٦٣.

^(١٠٠٥) فتح دياز في لوزداد الساحل لبحر الجنوب حتى وصل إلى خليج ألجو (Algoa) وسماه (خليج
الزوابع)، انظر: البطريق ونوار، التاريخ الأوروبي الحديث، ص ٥٠-٥١.

^(١٠٠٦) أمين، نظره جديدة للإنجازات السياسية، دراسات، م ١٥، ج ٧، ص ٢٦٩.

^(١٠٠٧) المرجع نفسه، ص ٢٦٩.

^(١٠٠٨) المرجع نفسه، ص ٢٧٤.

^(١٠٠٩) حنابلة، الأندلس، ص ٩٨٤.

وتذكر بعض المصادر أن الأسطول البرتغالي وصل عام ٩١٠هـ/١٥٠٤م إلى منطقة جدة وموانئ الجزيرة العربية، واحتل في عام ٩١٦هـ/١٥٠٦م جزيرة سوفطرة في خليج عدن، وتمكنوا من التسلل سراً إلى الأماكن المقدسة في الحجاز، كما تمكنوا من إغلاق طرق التجارة العربية الإسلامية التي كانت تمر عبر العراق وبلاد الشام^(١١١).

وكانت الجهود البرتغالية مسبقة بمباركة البابوات وتحريضهم، فقد أصدر البابا نيقولا الخامس سنة ١٤٥٤م مرسوماً يعطي لهرري الملاح الحق في غزو جميع الشعوب والأقاليم التي يسودها أعداء المسيح، وأصدر البابا كاليكستوس الثالث سنة ١٤٥٦م مرسوماً مماثلاً، كما أصدر البابا إسكندر السادس سنة ١٤٩٢م ثلاثة مراسيم تأمر البرتغاليين بتحويل المسلمين إلى المسيحية^(١١٢)، وكانت البابوية تمنح البرتغاليين جميع الحقوق والامتيازات من مالية وغيرها تشجيعاً لهم على حرب الإسلام والمسلمين.

ويؤكد الروح الصليبية التي انتطعت بها الاكتشافات الجغرافية البرتغالية ما فعله فاسكو دي غاما عندما اشترط على حاكم كاليكوت الهندي لوقف قصف الميناء أن يطرده المسلمين جميعاً ويخرجهم منه^(١١٣).

وكان البرتغاليون الصليبيون يعاملون المسلمين حيثما وجدوهم بوحشية وقسوة، فقد اعترضت أساطيلهم سفينة عائدة من الحج إلى الهند قرب ساحل الملبار، وكان على ظهرها (٣٨٠) راكباً، وقصفوها فالتهمتها النيران بمن عليها وبينهم كثير من النساء والأطفال. كما قام فاسكو دي غاما سنة ١٥٠٢م بتدمير وحرق عدد كبير من سفن المسلمين بالقرب من ميناء كاليكوت، وأسر ثمانمائة من رجالها، وعمد إلى قطع أنوفهم وأذانهم وأيديهم، ثم عرضهم في المدينة للفرجة عليهم^(١١٤).

واستندت الهجمة الصليبية البرتغالية ضد المسلمين في الشرق عام ١٥٠٦م، ففي ذلك العام وصل إلى الهند نائب ملك البرتغال ألفونسو دي اليوكيرك (Alfonso de

^(١١١) ابن إيلس، يدافع الزهور في وقائع الدهور، ج ٢، ص ١٥٦، ج ١، ص ٨٥، ٦٩١.

^(١١٢) الصوري، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي، ص ٦٦-٦٧.

^(١١٣) أمين، نظرة جديدة للإنجازات السياسية، مجلة دراسات، م ١٥، ج ٧، ص ٢٧٤.

^(١١٤) المرجع نفسه، ص ٢٧٦.

Albuquerque) وهو يحمل خطة تقضي بسد منافذ التجارة الإسلامية في الخليج العربي والبحر الأحمر^(١١٥)، وتنفيذاً لهذه الخطة احتل موقعين استراتيجيين هما سوق قطرة وهرمز التي تتحكم بمدخل الخليج العربي^(١١٦). وكان الهدف الرئيسي من سيطرة البرتغاليين على الخليج هو نقل التجارة من الهند والمراكز التجارية في آسيا إلى لشبونة لحرمان المسلمين من الأرباح التي يجنونها عن طريق قيامهم بدور الوسيط التجاري بين الشرق والغرب. ومن الوسائل التي اتبعها البرتغاليون لتحقيق هذه الغاية إجبارهم للتجار المسلمين على شراء السلع بالأسعار التي يحددها البرتغاليون، وعلى بيع سلعهم بالأسعار التي يحددها أيضاً^(١١٧).

وظل البرتغاليون يسيطرون على تجارة الشرق، ويكيلون للمسلمين ضربات حتى أوائل القرن السابع عشر الميلادي حيث ضعفوا وحل محلهم صليبيون آخرون قدموا من أوروبا، وخاصة الإنجليز والهولنديين.

اختلفت أساليب الإنجليز والهولنديين في السيطرة على تجارة الشرق عن أساليب البرتغاليين، إذ لم يعمدوا إلى إرسال الأساطيل الحربية إلى الشرق، وإنما إلى تأسيس شركات احتكارية، وكانت هذه الشركات "تؤسس بموجب امتياز خاص من إحدى الحكومات، تحول تلك الحكومة بموجبه جماعة من رعاياها دون سواهم حق احتكار تجارة بلد ما في منطقة معينة من العالم، ويحق للشركة صاحبة الامتياز عادة ممارسة صلاحية واسعة في مجال الدفاع والإدارة والقضاء على رعايا بلدها في منطقة امتيازها. ولها الحق المطلق تقريباً في منع أي من أولئك الرعايا من ممارسة التجارة إلا بموافقتها ونحت إشرافها. وخولت الشركات صلاحية إقامة العلاقات مع الحكام والملوك في الشرق في منطقة الامتياز، وهي التي تتفاوض معها، وتتعقد المعاهدات، وتتسلم البراءات والفرمانات، بل وتشن الحروب، وتتعقد الصلح، فقد كان لها جيوشها الخاصة بها ومواقعها

(١١٥) الصوري، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي، ص ١١٧ الحمادي، دور عرب عمان في إقصاء البرتغاليين عن الخليج العربي، ص ٢٧٠.

(١١٦) الحمادي، طارق، دور عرب عمان، مجلة معهد البحوث والدراسات العربية، ع ١٢، ١٩٨٤م، ص ٢٧٠.

(١١٧) آل خليفة، التأثير البرتغالي على التجارة، ص ٥٢١.

وقلاعها وأساطيلها»^(١١٩). ويعني منح الامتياز وفقاً لذلك أن الشركة بما تتمتع به من صلاحيات إنما كانت ذراعاً قوية سياسياً وعسكرياً واقتصادياً للدولة التي منحها الامتياز.

وتمثل شركة الهند الشرقية الإنجليزية التي حصلت على امتياز من الملكة إليزابيث الأولى بتاريخ ١٦/١٢/١٦٠٠م^(١٢٠) ذراع إنجلترا القوية في الشرق، وقد تمكنت بمرور الوقت من تأسيس الإمبراطورية البريطانية في الهند، وبذلك ساهمت بفعالية في إضعاف التجارة الإسلامية في البلدان الواقعة إلى الشرق من رأس الرجاء الصالح^(١٢١).

وتزامن مع ظهور شركة الهند الشرقية الإنجليزية ظهور شركة الهند الشرقية الهولندية التي منحها الحكومة الهولندية في سنة ١٦٠٢م امتيازاً أعطاهما "حق اتخاذ الإجراءات الكفيلة بردع أي معاملة سيئة يتعرض لها الهولنديون أو كل غش أو خداع يلقونه. كما حوّلت حق عقد معاهدات مع الحكام في الشرق باسم الحكومة الهولندية، وبناء القلاع، وتعيين الحكام والقضاة في المواقع التابعة، وتطبيق القانون، وتوفير النظام في تلك المناطق"^(١٢٢).

وقد تحالفت الشركتان الإنجليزية والهولندية في شن هجمتهما الصليبية التجارية ضد تجارة المسلمين في الشرق، كما وهدتا جهودهما ضد الوجود البرتغالي في الخليج العربي، وتمكنتا من فرض نفوذهما هناك منذ عام ١٦٢٥م^(١٢٣).

وكان الهولنديون يلجأون إلى القوة العسكرية للحصول على المزيد من الامتيازات التجارية في منطقة الخليج العربي، ومن ذلك ما فعلوه عام ١٦٤٥م حيث أرسلوا أسطولاً كبيراً قصف جزيرة قشم (Qishm) في الخليج مما أدى إلى منحهم حق المزاولة في بلاد فارس الإسلامية دون منافس^(١٢٤).

(١١٩) أمين، دراسات في النشاط التجاري، ص ٨٥.

(١٢٠) المرجع نفسه، ص ٥٠.

(١٢١) المرجع نفسه، ص ٥٤.

(١٢٢) قلعجي، الخليج العربي، ص ٢٨٤-٢٨٥.

(١٢٣) محمد، التواسم - نشاطهم البحري وعلاقتهم بالقوى المحلية والخارجية ١٧٤٧-١٨٥٤م، ص ١٦.

(١٢٤) أمين، المصالح البريطانية، ص ١٨-١٩؛ محمد، القواسم، ص ١٨.

وبينما كان المسلمون في المشرق الإسلامي يتعرضون لهذه الهجمة الصليبية الاقتصادية كان المسلمون في الأندلس يتعرضون لهجمة صليبية ربما كانت الأفظع في تاريخهم كله، فبعد سقوط غرناطة في أيدي المتيكن الكاثوليكين، تنكروا لاتفاقية تسليمها، واتخذوا قراراً في مدينة سلتقي في الرابع والعشرين من تشرين الأول عام ١٥٠٠م بأن يقوم الكهان والقساوسة والرهبان بالتبشير بالدين المسيحية على المذهب الكاثوليكي، وإذا لم ينجح ذلك في تنصير المسلمين يجب أن يتم تنصيرهم قسراً. ولهذه الغاية كان النصارى يأخذون الأطفال الذين تتراوح أعمارهم ما بين ٥-١٢ سنة ليروبوهم تربية خاصة في المعاهد المسيحية، ويلقوهم النصرانية، ويزرعوا في قلوبهم التعصب المقيت ضد ذويهم المسلمين^(١٢٦).

وفي إطار التنصير القسري تم تحويل مسجد غرناطة الجامع إلى كنيسة، كما تم تنصير أكثر من خمسين ألف مسلم في مدينة غرناطة وضواحيها^(١٢٧). وعندما أصبر بعض المسلمين على لبقاء على دينهم وإن سراً ترك أمرهم لمحاكم التفتيش^(١٢٨) المرعبة، فقد عملت هذه المحاكم على اجتثاث الشعائر الإسلامية القائمة، ودفع أولئك المسلمين الذين أطلق عليهم اسم (الموريصكيون) إلى الاندماج التام في الإيمان الكاثوليكي. وكانت لتلك المحاكم سجون عميقة مظلمة رطبة تفيض بالحشرات والجرذان، وكان المتهمون من المسلمين يلقون فيها مصنفين بالأغلال الحديدية الثقيلة^(١٢٩). وكل من يتم إدانته من هؤلاء، وغالباً ما يدانون، يؤخذ لينفذ فيه حكم الموت حرقاً بالدار، وذلك بعد أن يخضع لسلسلة من الوسائل التعذيبية التي تقصر لها الأبدان^(١٣٠). وتذكر بعض الإحصائيات أن الذين وقعوا ضحايا لمحاكم التفتيش من مسلمين وغيرهم من الذين لم يتبعوا المذهب

(١٢٦) خاتمة، الأندلس، ص ٦٧١-٦٧٢.

(١٢٧) المرجع نفسه، ص ٦٨٨.

(١٢٨) انظر التفاصيل حول نشاط محاكم التفتيش ودورها في: خاتمة، المرجع نفسه، ص ١٠٩٠ وما بعدها.

(١٢٩) غان، نهاية الأندلس، ص ٣١٧؛ خاتمة، الأندلس، ص ١١٢٤.

(١٣٠) غان، نهاية الأندلس، ص ٣٢٠؛ مظهر، محاكم التفتيش، ص ٥٤؛ خاتمة، الأندلس، ص ١١٢٩ وما بعدها.

الكاثوليكي بلغ عددهم خلال نحو خمسة قرون (١٢٢٢-١٨٢٥م) نحو تسعة ملايين شخص^(١١٩).

وبالوثريرة نفسها التي استمرت فيها الهجمة الصليبية ضد مسلمي الأندلس استمرت أيضاً ضد مسلمي المشرق، ولم تكن حملة نابليون بونابرت ضد الأمة العربية الإسلامية عام ١٢١٣هـ/١٧٩٨م سوى حلقة في هذه السلسلة التي جسدها نداء المؤرخ العنصري أرنست رينار عام ١٢٧٩هـ/١٨٦٢م: "إن الشرط الأساسي لإقامة الحضارة الأوروبية هو تدمير الانتماء إلى الإسلام. هذا الحرب الأبديّة، الحرب التي لن تنتهي إلا حين يموت آخر أبناء إسماعيل من البؤس، ويطرحة الرعب في عمق الصحراء... إن الإسلام هو النقي الكامل لأوروبا، إن أوروبا سوف تغزو العالم وتنتشر دينها الذي هو القانون والحرية واحترام للناس"^(١٢٠).

وهكذا فإن الحرب التي أرادها الصليبيون إنما هي حرب حضارة ضد حضارة الإسلام، وقد تأججت هذه الحرب منذ أواسط القرن التاسع عشر الميلادي حيث وُضع تمجيد الحملات الصليبية في خدمة السياسة الاستعمارية التي انتهجتها الدول الأوروبية ضد المسلمين^(١٢١). وفي أواخر القرن المذكور برزت الحركة الصهيونية بظهور الصحفي النمساوي اليهودي ثيودور هرتزل الذي نشر كتابه المشهور (الدولة اليهودية) في عام ١٨٩٦م، ذلك الكتاب الذي ساهم في إحياء الشعور القومي اليهودي مما أدى إلى عقد المؤتمر الصهيوني الأول في بازل بسويسرا عام ١٣١٥هـ/١٨٩٧م حيث وضع الأساس لبناء دولة يهودية كانت بمثابة رأس حربة غرسها الصليبيون في قلب العالم العربي الإسلامي لتمزيق أوصاله من جديد^(١٢٢).

لقد عقد عدد من الدول الأوروبية هي بريطانيا وفرنسا وبلجيكا وهولندا وإسبانيا والبرتغال وإيطاليا مؤتمراً في لندن عام ١٣٢٣هـ/١٩٠٥م بدعوة من السير هنري كامبل

^(١١٩) مظهر، محاكم التفتيش، ص ٥٤.

^(١٢٠) المجاني، المداخل إلى النظام السياسي الأردني، ص ٣٠.

^(١٢١) زيبوروف، الصليبيون في الشرق، ص ٣١١؛ أنجلي، النظام السياسي، ص ٣١.

^(١٢٢) الهداوي، الصهيونية بين الدين والسياسة، ص ١٩.

بفرمان، رئيس وزراء بريطانيا آنذاك، وتدارست هذه الدول سبل الحفاظ على شمس الحضارة الغربية من الأفول، ولتحقيق هذه الغاية أوصى المؤتمر بالعمل على تجزئة المنطقة العربية الإسلامية الممتدة من المحيط إلى الخليج، وعلى تجهيل هذه المنطقة لإبقائها على قدر كبير من التخلف، وزرع إسرائيل فيها لتفصل آسيا العربية عن إفريقيا العربية^(١٣٣).

واستغلت الدول الاستعمارية الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨م) لوضع توصيات مؤتمر لندن موضع التنفيذ، فقد اتفقت على تجزئة الوطن العربي الذي كان خاضعاً للدولة العثمانية، وتقاسمه فرنسا وبريطانيا^(١٣٤)، وأصدر وزير خارجية بريطانيا بلفور وعده في الثاني من تشرين الثاني عام ١٩١٧م بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين^(١٣٥).

وحقيقة وعد بلفور هي أنه لا يتجاوز إجراء حرباً صليبية ضد المسلمين وحضارتهم، فهذا الوعد ما كان ليصدر لو لم تكن هناك فتاعات راسخة لدى بريطانيا بأن مصالحها تتطلب إصداره، وأن الرغبة في الأمن الاستراتيجي لإمبراطوريتها تقتضي ذلك. وبالتالي فإن إصدار وعد بلفور كان جزءاً من مخططات دولة استعمارية كبرى للحفاظ على مصالحها الحيوية ضمن صراعاتها على الساحة الدولية، وللحصول على دعم سياسي وعسكري أمريكي لمجهودات الحرب^(١٣٦).

ولم يكن وعد بلفور قراراً بريطانياً صرفاً، وإنما كان قراراً صليبية بكل ما تعنيه الكلمة من مضمون، فمع أن بريطانيا هي الدولة التي تبنت عملية إصدار الوعد، إلا أنه صدر بمعرفة فرنسا وإيطاليا والولايات المتحدة الأمريكية وموافقتها، يدل على ذلك مساهمة تلك الدول إلى تأييده خلال فترة وجيزة من إصداره^(١٣٧).

^(١٣٣) تهزيمة، الأيديولوجيا والسياسة الخارجية، ص ٨٦-٨٧.

^(١٣٤) إنجلبي، النظام السياسي، ص ٣٩.

^(١٣٥) المرجع نفسه، ص ٦١ وما بعدها.

^(١٣٦) إنجلبي، النظام السياسي، ص ٧١.

^(١٣٧) المرجع نفسه، ص ٧٣.

وإذا كانت بريطانيا مصلحة استراتيجية في زرع (إسرائيل) في قلب الوطن العربي، وفرنسا وإيطاليا وغيرهما من دول أوروبا مصلحة مماثلة، فإن للولايات المتحدة الأمريكية أيضاً مصلحة لا تقل أهمية، فالموضوع لا يتعلق بحب الغرب الصليبي لليهود، وحرصه انطلاقاً من هذا الحب الجارف على تأمين وطن لليهود، فهذا الحب لم يكن موجوداً على الإطلاق، والأمر في هذا الشأن لا يحتاج إلى دليل، فالكراهية المطلقة تجاه اليهود هي التي كانت موجودة لدى الغرب النصراني بأسره، وقلوب الصليبيين كانت على الدول مفعمة بكراهية اليهود حيثما وجنوا، وأينما حلوا إلا في ديار الإسلام. وإذا كان تفصيل ذلك يخرج هذه الدراسة عن إطارها، فلا أقل من إدراج دليل على كراهية الولايات المتحدة الأمريكية لليهود، تلك الدولة الكبرى التي تحتضن إسرائيل اليوم لغاية في نفسها، وهي غاية صليبية مقيته.

وتتلخص غاية الولايات المتحدة الأمريكية في تنفيذ وصية الفيلسوف الأمريكي بنيامين فرانكلين (١٧٠٦-١٧٩٠م) الذي يعد من أعظم الرجال وأقترهم في الولايات المتحدة، ومن الإصلاحيين العظام في العالم الحديث. وقد كان خبيراً باليهود، مترباً لخطرهم على الغرب وحضارته، مما دفعه إلى توجيه النصيحة التالية لقادة بلاده:

”هناك خطر كبير على الولايات المتحدة، ويتمثل هذا الخطر باليهود، تلك الأنهم إذا استقروا بأي أرض فإنهم يحطمون المستوى الأخلاقي، ويحطون من قدر وأمانة المستوى التجاري. ولقد ظلوا يعيشون في أي مجتمع غير مهضومين، بل ومضطهدين، إنهم يحاولون خلق الأمم مالياً كما كان الحال في إسبانيا والبرتغال“^(١٣٨).

وقد وصف بنيامين فرانكلين اليهود بأنهم مصاصو دماء، وبأنهم لا يستطيعون العيش إلا على غيرهم. وأخذاً بنصيحة فرانكلين أصدر المؤتمر الدستوري الأمريكي لعام ١٧٨٧م توصية جاء فيها^(١٣٩):

(١٣٨) مايكل ديب، الأسرار المذهلة للكاثرة العظمائية، ص ٤.

(١٣٩) المرجع نفسه، ص ٥.

”إذا لم يطرد اليهود خلال (٢٠٠) عام فإن أولادنا سوف يعملون في الأراضي والحقول لمدحهم بالغذاء بينما هم يقبعون في بيوتهم يعدون أموالهم، ويفركون أيديهم ابتهاجاً وفرحاً“.

وحاء ختام تلك التوصية التي اقترحها فرانكلين نفسه على شكل إنذار من مخبة عدم طرد اليهود من الولايات المتحدة الأمريكية:

”إني أنذركم أيها السادة إذا لم تطردوا اليهود وإلى الأبد فإن أولادكم وأولاد أولادكم سوف يلغونكم في قبورهم. إن مثلهم وتصوراتهم تختلف عن مثلنا وعقليتنا حتى لو أقاموا بين ظهرائنا أجيالاً طويلة، ذلك لأن الفهد لا يستطيع أن يغير بقع جلده. إنهم سوف يعرضون للخطر والهلاك جميع مؤسساتنا، ولذلك يجب طردهم من البلاد“.

وعني عن القول أن الولايات المتحدة قد عجزت عن اقتلاع اليهود من أرضها لأسباب معروفة، أبرزها أنهم تمكنوا من التغلغل فيها تغلغلاً سرطانياً واسع الانتشار، يصعب القضاء عليه، ولكنها استغلت إنشاء الوطن القومي لهم في قلب العالم العربي، فدعمته لا حباً بهم، ولكن كراهية لنا، وإبقاء على ما نحن فيه من تفكك وضعف لن نقوم لنا معهما قائمة، وفي ذلك ما يعزز تحقيق الأهداف الصليبية للغرب النصراني.

لقد نجح الغرب النصراني نتيجة للحرب العالمية الأولى في تقسيم البلاد العربية إلى وحدات سياسية صغيرة، تمثلت في هذا العدد الكبير من الدويلات التي لم تختلف من حيث العدد، ومن حيث التناقض فيما بينها، عن تلك الدويلات التي أقامها ملوك الطوائف في الأندلس في أعقاب انهيار الخلافة الأموية فيها، وهذا التناقض كثيراً ما اشتد وزادت سخونته إلى درجة الاشتعال بين الدويلات المتجاورة دون أن تترك هذه الدويلات ما حاكم لها الاستعمار من دسائس، أو تترك حقيقة الأسافين التي دفنتها بين مناطق الشعب العربي الواحد، ولم تفلح جهود شريف مكة الحسين بن علي في انتزاع وقاء بالوعد الذي قدمه له الحلفاء بتأمين استقلال البلاد العربية ووحدة تحت رايته ثمناً لاشتراكه في الحرب إلى جانبهم ضد الدولة العثمانية^(١١).

(١١) الدجاني، التدخل إلى النظام السياسي، ص ٤١-٤٢؛ سليمان موسى، من تاريخنا الحديث، ص ٣٩.

وكان الغرب النصراني وراء إفشال جميع المشاريع الوحدوية التي نادى بها بعض العرب ودعوا إلى تحقيقها، مثل مشروع سوريا الكبرى أو مشروع الوحدة السورية الذي دعا إليه الأمير الهاشمي عبد الله بن الحسين بن علي^(١١١)، ومشروع الهلال الخصيب الذي نادى به توري السعيد^(١١٢)، فقد حاربت بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية وغيرهما من دول الغرب كل شكل من أشكال الوحدة أو الاتحاد بين التوابع العربية. وبدلاً من ذلك أيدت الدول الاستعمارية إنشاء الجامعة العربية كبديل للوحدة^(١١٣)، ووجهت الوفود العربية التي كانت تجتمع في القاهرة للتشاور في إنشاء الجامعة إلى تجاوز التفكير في الوحدة أو الاتحاد، وأن تركز فقط على هدف واحد هو تجميع الدول العربية تحت مظلة واحدة ليسهل بسط النفوذ عليها^(١١٤).

وهنا لا بد من التذكير بما قلله الأمير عبد الله بن الحسين في مذكراته عن الجامعة العربية، فقد قال: "الجامعة العربية صوت فاه به توري السعيد، وثقلته مصطفي النحاس، وأيده المستر (لنغوي إيتن)، فهي حزاب أشكل فيه سبعة رؤوس: اليمن والعراق وسوريا ولبنان وشرق الأردن بسرعة عجيبة، في وقت كانت فيه سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، وشرق الأردن تحت الانتداب البريطاني، ومصر والعراق تحت المعاهدتين الساريتين إلى الآن. فالدول العربية كانت حينذاك في قيود انتدابية وعهدية ما عدا اليمن ونجد فإنهما كانتا حرتين. وفي هذا يتجلى للأمة العربية التسابق العجيب بين دولها السبع، تسابق بين مقيد ومطلق، إما قيد احتلال، أو قيد عهد، وإما قيد جهالة... ووطن الغريب اللراضي عن هذه الجامعة أنها ستكون خير أداة لشوم الانتداب، ودوام الأحكام العبدية، وإني تارك لغيري تفسير هذه الظنون"^(١١٥).

(١١١) انظر حول هذا المشروع: عبد الله بن الحسين، الآثار الكاملة، ص ٢٠٤، ٢١١-٢١٨، محافظة العلاقات الأردنية البريطانية، ص ١٢١، هائل، أمريكا والوحدة العربية، ص ٦٩.

(١١٢) هائل، أمريكا والوحدة العربية، ص ٤٦٤ لروسا، العراق وقضايا الشرق العربي، ص ٨٥ وما بعدها، صانع، العراق والوحدة العربية، ص ٧٨ وما بعدها.

(١١٣) العلمي، جامعة الدول العربية، ص ١٨، روجية ألون، القومية العربية، مجلة شؤون عربية، ص ١٤٨، هائل، أمريكا والوحدة العربية، ص ٤٠، ٥٣.

(١١٤) الشقيري، الجامعة العربية، ص ٩٨-٩٩.

(١١٥) عبد الله بن الحسين، الآثار الكاملة، ص ٢٣٧-٢٣٨.

وكانت كل دولة من دول الجامعة عندما أنشئت مرتبطة بقوة من دول الاستعمار الصليبي لا يمكنها من التصرف خارج الالتزامات المتعهد بها^(١٤٦).

والحقيقة أن إنشاء الجامعة العربية كان وبالأعلى على أمل هذه الأمة في الوحدة، وهو ما سعت دول الغرب الصليبي إلى تكريسه، فقد أوجدت في كل قطر من الأقطار العربية ظروفًا خاصة مختلفة عن ظروف القطر الآخر، ثم عملت على تكريس الولاء الوطني الذي أصبح يعرور الزمن له الأولوية على الولاء الإقليمي أو القومي.

ولم تتوقف الهجمة الصليبية على الأمة العربية التي أصبحت ممزقة في أعقاب الحربين الكونيتين الأولى والثانية، وفي أعقاب إنشاء الجامعة العربية التي كرست التجزئة والتفرق، وأصبحت هذه الهجمة المتكررة تتم عبر إسرائيل أو بوساطتها، وتتم عبر الضغط الاقتصادي، وعبر الضغط العسكري باستخدام القوة المسلحة بشكل مباشر، ومن ذلك حرب السويس التي بدأتها إسرائيل ضد مصر في التاسع والعشرين من تشرين الثاني عام ١٩٥٦م^(١٤٧).

وكانت أزمة السويس فقد تفاقمت إثر تأميم مصر لشركة قناة السويس في ٢٦ تموز عام ١٩٥٦م، وسببها قيام الدول الغربية بسحب عروض كانت قد تقدمت بها لتمويل بناء السد العالي في جنوبي مصر^(١٤٨). فقد دفع ذلك الرئيس المصري جمال عبد الناصر إلى إصدار مرسوم بتأميم الشركة، ومصادرة ممتلكاتها وحقوقها وامتيازاتها، مما شكل ضربة موجعة لحكومة بريطانيا التي شعرت بضرورة الرد عليها حفاظاً على مصالحها ونفوذها^(١٤٩). ولرد الضربة الموجعة خططت بريطانيا لاحتلال القاهرة، وعقدت مع الفرنسيين والإسرائيليين اجتماعاً سرى في باريس في ٢٤ تشرين الأول عام ١٩٥٦م لإعداد خطة الهجوم على مصر على أن تبدأ إسرائيل مما يعطي الإنجليز والفرنسيين

^(١٤٦) عبد الرحمن الصيون، الأفكار الكاملة، ص ٢٣٩.

^(١٤٧) محافظة، العلاقات الأرمنية - البريطانية، ص ١٢٥٩ النجاني، التدخل إلى النظام السياسي، ص ١١٦.

^(١٤٨) الخلاصة، الاستراتيجية الأرمنية، ص ١٢٩٧ النجاني، التدخل إلى النظام السياسي، ص ١١٣.

^(١٤٩) النجاني، التدخل إلى النظام السياسي، ص ١١٣-١١٤.

تريفة للتدخل^(١٥٠). وقد بدأت إسرائيل هجومها بالفعل في الموعد المتفق عليه مسبقاً وهو ٢٩ تشرين الأول، وفي اليوم التالي أنزعت بريطانيا وفرنسا مصر وإسرائيل بوقف الحرب، وقامت القوات البريطانية والفرنسية المحتشدة في قبرص باحتلال مدن السويس والإسماعيلية وبور سعيد بحجة تأمين الملاحة في القناة^(١٥١). غير أن الولايات المتحدة الأمريكية بانرت إلى استخدام قوتها الاقتصادية لإرغام بريطانيا وحليفتها على الانسحاب من منطقة السويس مما أدى إلى وقف العملية^(١٥٢). والحدير بالذكر هنا أن موقف الولايات المتحدة المناهض لعملية السويس التي استهدفت احتلال القاهرة، وإسقاط الرئيس جمال عبد الناصر لم تقه حياً بالعرب، وحرصاً على مصالحهم، وإنما وقفته لأن ذلك يتعارض مع مصالحها في المنطقة، خاصة أنها في ذلك الوقت أصبحت مهددة لتزعزع العالم الغربي بما أحرزته من تقدم في المجالات الاقتصادية والعلمية والتكنولوجية والعسكرية.

وكان من أهم نتائج حرب السويس أن بدأ السعي الأمريكي للحلول مكان البريطانيين والفرنسيين في المنطقة العربية، هذه المنطقة التي انتهت بفعل الهجمات الصليبية السابقة إلى الانقسام على نفسها، والتباعد عن بعضها حيث تمحورت دويلاتها في معسكرين متناقضين، جمع الأول مصر والسودان واليمن والجزائر، ووصف نفسه بأنه (ثوري) أو (ثقفي)، وضم الثاني السعودية والأردن وليبيا والكويت وإمارات الخليج العربي وتونس والمغرب، وقد وصفه الآخرون بأنه: (محافظ) أو (رجعي)، وبينما خضع المعسكر الأول لنفوذ الاتحاد السوفييتي خضع المعسكر الثاني لنفوذ الولايات المتحدة. ولدى النفوذ الاستعماري الصليبي إلى زعزعة الاستقرار في المنطقة، حيث قامت محاولة انقلاب في الأردن عام ١٩٥٧م، واشتعلت حرب أهلية في لبنان في أيار ١٩٥٨م، ووقع انقلاب عسكري في العراق في تموز ١٩٥٨م. ونتيجة لهذه الأحداث تم إزلال قوات عسكرية أمريكية في لبنان وقوات بريطانية في الأردن^(١٥٣).

(١٥٠) النجاني، المنخل إلى النظام السياسي، ص ١١٦.

(١٥١) الخلافة، الاستراتيجية الأردنية، ص ٢٩٩.

(١٥٢) النجاني، المنخل إلى النظام السياسي، ص ١١٦.

(١٥٣) المرجع نفسه، ص ١٢١.

وبدأت الحرب الصليبية ضد الأمة العربية الإسلامية تكف منذ أوائل المستعيلات من القرن العشرين بواسطة إسرائيل التي أخذت تشن الحروب ضد الأمة بدعم سياسي وعسكري لا حدود له من قبل الدول الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية. وفي هذا الإطار شنت إسرائيل الحرب ضد العرب في ٥ حزيران ١٩٦٧م، وحطمت الجبهات الأردنية والمصرية والسورية، واحتلت مناطق شاسعة من أراضي هذه الدول^(١٥١). وأقامت الولايات المتحدة الأمريكية جسراً جواً لنقل الذخائر والإمدادات إلى القوات الإسرائيلية في حرب تشرين الأول عام ١٩٧٣م مما حال دون إلحاق هزيمة ساحقة بها في تلك الحرب^(١٥٢). وبذلك أثبتت هذه الحرب مدى الارتباط الوثيق بين المصالح الغربية والأهداف الإسرائيلية، كما أثبتت عدم قدرة إسرائيل على الصمود بغير الدعم الصليبي لها.

فخ السلام

أدى الدعم الأمريكي لإسرائيل والتزام الولايات المتحدة المطلق بأمنها من جهة، وتمزق العالم العربي وعدم قدرته على التفاوض والتسوية الحقيقي بين أطرافه من جهة أخرى إلى الرضوخ لهجمة صليبية من نوع جديد، هي هجمة السلام. فقد تم استدراج الدول العربية إلى هذا الفخ حيث دعيّت للاستجابة إلى إعلان كارتر - بيرجينيف الذي أطلق بشأن الشرق الأوسط في الأول من تشرين الأول عام ١٩٧٧م، وتتلخص بنوده في^(١٥٣):

- السحاب إسرائيل من الأراضي العربية التي احتلتها عام ١٩٦٧م.
- حل المشكلة الفلسطينية بما يضمن الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني.
- إنهاء حالة الحرب بين إسرائيل والدول العربية المجاورة وإقامة علاقات طبيعية على أساس الاعتراف المتبادل بالمساواة والحدود والاستقلال السياسي.

(١٥١) سليمان موسى، تاريخ الأردن في القرن العشرين، ص ١٢٨، الفخيلة، الاستراتيجية الأردنية، ص ٥٠٣ وما بعدها.

(١٥٢) رفعت وحيدة، المؤسسة العسكرية الإسرائيلية، ص ١١٤، لحد عبد الرحيم، الحرب الدائمة مع إسرائيل، ص ٤٣.

(١٥٣) عريقات، السلام على السلام، ص ٤٧-٤٨.

- تقديم ضمانات دولية بمشاركة الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفياتي للتأكد من تطبيق اتفاق السلام.

وكان رئيس مصر أول الموقعين في فتح السلام الذي نصبت له أمريكا، فقد زار إسرائيل في ١٨ تشرين الثاني عام ١٩٧٧م، وأسفرت مباحثاته مع الإسرائيليين والأمريكيين عن توقيع اتفاقية في كامب ديفيد في الولايات المتحدة بين مصر وإسرائيل، ثم توقيع معاهدة صلح بينهما في واشنطن في ٢٦ آذار عام ١٩٧٩م^(١٥٧).

وكانت معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل كارثة على مصر وعلى الشعب الفلسطيني والأمة العربية، فقد عزلت مصر بثقلها السياسي والعسكري والبشري عن الصف العربي، وعززت أمن إسرائيل، وأصبحت الدول العربية الأخرى بالإنحباط والقلوط^(١٥٨).

وعندما انتكست عملية السلام إثر اغتيال السادات في ٦ تشرين الأول عام ١٩٨١م باتر الرئيس الأمريكي رونالد ريغن إلى تنشيطها بإطلاق خطة عرفت بخطة ريغن للسلام، ومن أهم ما تضمنته: منح الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة حكماً ذاتياً، وعدم تأييد ضم إسرائيل للأراضي المحتلة، ووجوب حل النزاع العربي الإسرائيلي عن خلال المفاوضات، والتزام الولايات المتحدة بأمن إسرائيل^(١٥٩).

^(١٥٧) مؤسسة الدراسات الفلسطينية، المعاهدة المصرية الإسرائيلية، ص ٣-٨.

^(١٥٨) كامل، السلام الضائع، ص ١٥٨٤ الحصن بن طلال، السعي نحو السلام: ١٩٢١.

^(١٥٩) المنقضي، الأردن وحرب السلام، ص ١٨٨-١٨٩: الهور والموسى، مشاريع التسوية للقضية الفلسطينية، ص ٢١٦.

وقد رفضت إسرائيل خطة ريفان للسلام كما رفضتها الدول العربية، وأدى ذلك إلى قيام الأمم المتحدة بالدعوة إلى عقد مؤتمر دولي للسلام في الشرق الأوسط على أساس الشرعية الدولية المتمثلة في قرار مجلس الأمن (٢٤٢) و (٣٣٨) (١٦٠). غير أن الولايات المتحدة وإسرائيل وضعتا شروطاً لعقد المؤتمر لم تقبل بها الدول العربية مما أدى إلى فشل الجهود الكبيرة التي بذلت لعقده (١٦١).

(١٦٠) الحماد، المؤتمر الإقليمي للسلام، ص ٩٩.

(١٦١) المرجع نفسه، ص ٥٠.

عولمة الحرب الصليبية

ضد المسلمين

شكلت أزمة الخليج التي نجمت عن احتلال العراق للكويت في الثاني من آب عام ١٩٩٠م قرصة ذهبية أمام الغرب من أجل شن هجمة صليبية عسكرية ساحقة ليس ضد العراق وحسب، وإنما ضد الأمة العربية جمعاء. فبحجة إخراج العراق من الكويت قامت الولايات المتحدة بحشد الأساطيل والجيوش الغربية من نحو ثلاثين دولة، وفانيتها لضرب العراق، ووأت نهضته الواعدة في المجالين العلمي والعسكري، خاصة أنه كان من أعداء المعادين لمشاريع التسوية السلمية مع إسرائيل، ومن أقوى المرشحين لامتلاك القوة العسكرية المهددة لأمنها. وقد تمكنت تلك القوة الصليبية الهائلة بضربها العراق من تحقيق عدة أهداف: فقد أحدثت شرخاً جديداً بين أبناء الأمة العربية الواحدة باستقطاب بعض الدول العربية إلى جانبها ضد بعضها الآخر، ودمرت الآلة العسكرية العراقية مجربة في ذلك لنوعاً من الأسلحة المحرمة دولياً، وسيطرت على منابع النفط بشكل مباشر.

ومن جهة أخرى كانت عملية إخراج العراق من الكويت التي أطلق عليها الغرب اسم (عاصفة الصحراء) إنما هي في الحقيقة عاصفة من اليورانيوم المنضب الذي أطلقتته القوات الغربية في الكويت وشمالي السعودية وجنوبي العراق ليفتك بالأخضر واليابس، ويحول الحياة إلى أشلاء في مناطق واسعة من وطننا العربي. فقد ألقت الولايات المتحدة أكثر من ٣٠٠ طن من اليورانيوم المنضب على العراق، وتأثر بهذا السلاح المسمر العراقيون والأمريكيون والبريطانيون والكنديون والكويتيون والسعوديون على حد سواء، حيث انتشرت أمراض لم نسمع بها من قبل، ومنها مرض حرب الخليج الذي فتك حتى بالأعداء أنفسهم.

وقد كانت النتيجة الحتمية لإخراج العراق من معادلة القوة بين العرب وإسرائيل، ومن قبل ذلك إخراج مصر هي رضوخ بقية العرب للهجمة الصليبية السلمية التي استهدفت فرض الاستسلام على العرب لصالح الغرب الصليبي ممثلاً بربيبته إسرائيل. ذلك أن تسلسل الأحداث قاد إلى مدريد ومن ثم إلى أوسلو، فقد أثارت أزمة الخليج موضوع الاحتلال الإسرائيلي للضفة الغربية وقطاع غزة، والربط بين تطبيق الشرعية

الدولية على العراق وعلى إسرائيل، وشعالت الأصوات المنددة بأمريكا متهمه بإياها بأنها تكيل بمكيا لين^(١٦٢).

والحقيقة أن السياسة الانتقامية التي اتبعها الغرب الصليبي، وعلى رأسه الولايات المتحدة لم تكن خافية على أحد، فالغرب كان إصراره ولا يزال عجيباً على تطبيق قرارات الأمم المتحدة، واستخدام القوة العسكرية لتطبيقها إذا كانت تلك القرارات تخدم مصالحه، وإن لم تكن كذلك فهو يتغاضى عنها، ولا يقيم لها وزناً، فقد بادر الغرب بقضه وقضضه لضرب العرب، بينما وقف دائماً ضد أي قرار يصدر بمجرد إدانة إسرائيل، ويتجلى هذا أيضاً في موقف الولايات المتحدة إزاء عملية السلام بين العرب وإسرائيل، فالولايات المتحدة بدلاً من أن تجبر إسرائيل على تطبيق قرارات الشرعية الدولية، ومبدأ الأرض مقابل السلام الذي تبناه العرب، وقفت إلى جانب إسرائيل سواء في تفسيرها المغلوط لقرارات الأمم المتحدة، أم في تعنتها إزاء تطبيقها، أم في تجيير هذه القرارات لصالحها.

لقد أعلن الرئيس الأمريكي جورج بوش بعد انتهاء حرب الخليج مباشرة، أي في ٦ آذار عام ١٩٩١م^(١٦٣) أن الوقت قد حان لوضع حد للنزاع العربي الإسرائيلي على أساس قراري مجلس الأمن (٢٤٢) و(٣٣٨) ومبدأ الأرض مقابل السلام، ولكن شريطة ضمان أمن إسرائيل، وعمل هيمس بيكر وزير الخارجية الأمريكي على إقناع الأطراف المعنية بضرورة حضور مؤتمر للسلام يعقد بتاريخ ٣٠ تشرين الأول عام ١٩٩١م في مدريد^(١٦٤)، ولم يكن باستطاعة أي من الدول العربية التأخر عن حضور هذا المؤتمر، أو حتى إبداء الرغبة في عدم حضوره والمشاركة في أعماله، لأنها لو فعلت ذلك فإنها ستعرض لفضب زعيمة العالم أمريكا وعقوباتها عبر صندوق النقد الدولي والبنك الدولي ومنظمة التجارة العالمية ومنظمة حقوق الإنسان، ذلك أن هذه المؤسسات أصبحت أذرعاً أخطبوطية طويلة تسيطر عليها الولايات المتحدة، وتحصل بواسطتها على ما تريد من جميع دول العالم، خاصة العالم العربي.

(١٦٢) سالتجر، حرب الخليج، ص ٢٣٥-٢٣٦.

(١٦٣) الحمد، عملية السلام في الشرق الأوسط، ص ٢١.

(١٦٤) المنطقي، الأردن وحرب السلام، ص ٣٠٢-٣٠٣.

لقد وقف جيمس بيكر في مؤتمر مدريد ليعلم أن الولايات المتحدة لن تقبل عقراً من أحد، وعلى الجميع المشاركة والحضور، وأمام هذا الإعلان المبطن بالتهديد والوعيد سارع الكل للمشاركة في المؤتمر الذي تمخضت عنه فيما بعد جميع الاتفاقيات ومشاريع التسوية بين العرب وإسرائيل، ورفعت أعلام إسرائيل في أغلب العواصم العربية^(١٦٥).

لقد كان مؤتمر مدريد أول خطوة على طريق التصالح بين العرب والإسرائيليين، وبدأ أعماله بتاريخ ٣٠ تشرين الأول عام ١٩٩١م لغايات إحلال السلام في الشرق الأوسط، وافتتح محادثات المؤتمرين فيليب جونزاليس رئيس وزراء إسبانيا، برعاية الرئيس الأمريكي جورج بوش والرئيس السوفياتي ميخائيل غورباتشوف. وجرت جلسات المؤتمر برئاسة جيمس بيكر وزير الخارجية الأمريكي ويوريس بانكين وزير الخارجية السوفياتي اللذين تصدرتا مائدة المفاوضات، وشارك في أعمال المؤتمر مصر ولبنان وإسرائيل وسوريا والأردن وفلسطين، وقد تمكن المؤتمر من تحطيم أقوى المحرمات في الشرق الأوسط، خاصة رفض النول العربية التفاوض مع إسرائيل وجهاً لوجه، ورفض إسرائيل القبول بهوية فلسطينية مميزة^(١٦٦).

والت محادثات السلام التي استضافتها إسبانيا، تلك الدولة النصرانية التي تميزت عبر تاريخها بأنها الأكثر تعصباً دينياً للكاتوليكية، وشهدت أرضها أخطر اتفاقية على الإسلام والمسلمين، وهي تلك التي تم توقيعها في غرناطة عام ١٤٩١م، وأخرج المسلمون بموجبها من الأندلس بعد أن عسروها نحو ثمانية قرون، لقد أدت تلك المحادثات إلى كسر الحاجز النفسي أمام اللقاءات العربية الإسرائيلية المباشرة، إذ عقدت لقاءات سرية في أوسلو عاصمة النرويج بين وفد فلسطيني برئاسة محمود عباس، ووفد إسرائيلي برئاسة وزير خارجية إسرائيل شمعون بيرس، ونجم عن تلك اللقاءات التوصل إلى اتفاق إعلان المبادئ بشأن ترتيبات الحكم الذاتي الفلسطيني الذي وقع بالأحرف الأولى في أوسلو يوم ١٩ آب عام ١٩٩٣م، وجرى التوقيع عليه رسمياً في واشنطن يوم ١٣يلول عام ١٩٩٣م^(١٦٧).

^(١٦٥) عتيقة، الوطن العربي والمستجدات الإقليمية والدولية، ص ١٩١-١٩٢.

^(١٦٦) الدجاني، التدخل إلى النظام السياسي، ص ١٣٥.

^(١٦٧) الخلايلة، الاستراتيجية الأردنية، ص ٢٢٥.

وهكذا انزلق الفلسطينيون إلى الفخ الذي نصبته الدول للصليبية بقيادة الولايات المتحدة، ووقعوا اتفاقاً سرياً لا يختلف في جوهره عن اتفاق تسليم غرناطة، فقد نص اتفاق إعلان المبادئ على "أن حكومة دولة إسرائيل والفريق الفلسطيني يتفقان على أن الوقت قد حان لإنهاء عقود من المواجهة والنزاع، والاعتراف بحقوقهما المشروعة والسياسية المتبادلة، والسعي للعيش في ظل تعايش سلمي وبكرامة وأمن متبادلين ولتحقيق تسوية سلمية عادلة ودائمة وشاملة، ومصالحة تاريخية من خلال العملية السياسية المتفق عليها"^(١٦٨).

ونصت المادة الأولى من إعلان المبادئ على أن هدف المفاوضات هو إقامة سلطة حكومية ذاتية انتقالية فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة لفترة انتقالية لا تتجاوز خمس سنوات، وتؤدي إلى تسوية دائمة تقوم على أساس قراري مجلس الأمن (٢٤٢) و(٣٣٨)^(١٦٩).

ونصت المادة الخامسة من اتفاق إعلان المبادئ على أن تبدأ فترة السنوات الخمس الانتقالية فور الانسحاب من قطاع غزة ومنطقة أريحا، وتبدأ مفاوضات الوضع الدائم بين حكومة إسرائيل وممثلي الشعب الفلسطيني في أقرب وقت ممكن، على ألا يتعدى بداية السنة الثالثة من الفترة الانتقالية، وتغطي هذه المفاوضات القضايا المتبقية بما فيها القدس واللاجئون والمستوطنات والترتيبات الأمنية والحدود والعلاقات...^(١٧٠).

وكان اتفاق أوسلو ليس سوى تصفية للقضية الفلسطينية، فهو لا يترك أي مجال للأجيال القادمة من أجل العمل على تحرير الأرض الإسلامية الفلسطينية من البحر إلى النهر. كما أن هذا الاتفاق فتح الطريق أمام بعض الدول العربية لتوقيع معاهدات سلام منفردة مع إسرائيل، وإقامة علاقات دبلوماسية واقتصادية وتعاون وتطبيع معها، وأدى إلى إضفاء الشرعية السياسية والقانونية والدولية على دولة إسرائيل وحققها في الوجود^(١٧١).

^(١٦٨) الشوا، مستقبل السلام في الأرض المقدسة، ص ٢٤٩.

^(١٦٩) المؤلف الوثائقي، مسيرة السلام، ص ٤٤.

^(١٧٠) المرجع نفسه، ص ٤٥.

^(١٧١) الحمد، عملية السلام، ص ٤٨.

وأهمل الاتفاق قضايا أساسية، وتنازل عن حقوق أقرتها الدول خاصة حق مقاومة الاحتلال، كما أضعف المطالب الفلسطينية بدولة فلسطينية مستقلة ذات سيادة كاملة بتأجيله ليبحث في جوهر القضية، وهو إنهاء الاحتلال، وحل القضايا التي تمس السيادة الوطنية كالتنقش والمستوطنات والحدود والأجانب، وبموجب إعلان المبادئ وافقت منظمة التحرير الفلسطينية على شرعية الاحتلال العسكري بمشاركتها في إدارة المناطق مما يعد بداية لمشروع (الكتنونات)^(١٧٢).

وليس من شك في أن إسرائيل حققت بمساعدة الدول الصليبية معظم أهدافها عبر اتفاق المبادئ في أوسلو، وحولت منظمة التحرير الفلسطينية من منظمة جهادية كانت تصفها بالإرهابية إلى مجرد نزاع سياسية تعمل من داخل المناطق المحتلة تحت بصرة إسرائيل وسمعتها، وربما كان هذا هو الهدف المحوري الذي أرادت إسرائيل أن تحققه، وتمكنت من ذلك بسبب تفاؤل الأمة أو غفلتها عما يدور حولها^(١٧٣).

لقد قام اتفاق إعلان المبادئ على قاعدة (غزة - أريحا أولاً)، وتم توضيح ذلك الإعلان باتفاق (أوسلو ١) الذي وقع في القاهرة في ٤ أيار عام ١٩٩٤م، ثم باتفاق (أوسلو ٢) الذي وقع في واشنطن بتاريخ ٢٨ أيلول عام ١٩٩٥م، وبموجب هذا الاتفاق الأخير قطعت أوصال الضفة الغربية، حيث قسمت قسمة عجبية غريبة إلى أربع مناطق: (أ) و(ب) و(ج) و(د)، وتضم المنطقة (أ) مدن: جنين وطولكرم وقلقيلية ونابلس وبيت لحم ورام الله وتصبح تحت إشراف الأمن الفلسطيني. وتضم المنطقة (ب) قرى الضفة الغربية المحيطة بتلك المدن، وتصبح تحت إشراف مشترك لقوات الشرطة الفلسطينية والجيش الإسرائيلي. بينما تتضمن المنطقة (ج) المناطق غير المأهولة، وسيكون الأمن فيها من مسؤولية الإسرائيليين، بينما ستكون السلطة المدنية من مسؤولية الفلسطينيين. ولما المنطقة (د) فتشمل المستوطنات الإسرائيلية وعندها (١٢٤) مستوطنة بالإضافة إلى

^(١٧٢) الحميد، عملية السلام، ص ١٤٨، ٧٠ أبو عمرو وآخرون، قراءة تحليلية للاتفاق الفلسطيني - الإسرائيلي، ص ١٦.

^(١٧٣) الحميد، عملية السلام، ص ٥٢-٥٣.

قواعد الجيش الإسرائيلي وبعض الموانئ الساحلية، وتخضع هذه المنطقة للسيطرة الإسرائيلية^(١٧١).

وهذا التقسيم لا يمكن للمواطن العربي المسلم أن يفهم أو يستوعب حكمة الفلسطينيين من الموافقة عليه، لأن من يتفق النظر فيه يدرك أنه تكريس للاحتلال وليس منحاً للاستقلال بأي صورة من الصور، سواء كان هذا الاستقلال مبتوراً أم كاملاً.

إن ما يمكن أن يتفهّمه المواطن العربي المسلم المصاب بالإحباط الشديد بسبب ما آلت إليه الأمة في ظل الوضع العالمي، وتزعم أعني دولة عرفتها الأرض لعالم اليوم هو معادلة بسيطة تقوم على أساس لمصالح إسرائيل الكامل والشمول من جميع الأراضي التي احتلتها في حرب حزيران عام ١٩٦٧م مرة واحدة مقابل إنهاء حالة الحرب معها وضمها أمنها من قبل الولايات المتحدة ضد المخاطر السياسية، والولايات المتحدة قائدة على ذلك في ظل الأوضاع الراهنة للأمة العربية الإسلامية، ولذلك فإن ما حدث ليس سلاماً، وإنما هو استسلام لإرادة الصليبيين في نطاق الحرب المستمرة التي يشنونها ضد الإسلام وحضارة المسلمين.

ولم يكن السلام الذي فرض على المنطقة خياراً عربياً وإسرائيلياً، وإنما كان خياراً أمريكياً، والولايات المتحدة التي ورثت قيادة الصليبيين وروحهم وتطرفهم ما فتئت تلجأ إلى أي وسيلة تمكنتها من قهر المسلمين، وتضييق الخناق عليهم، وإضعافهم، والاستيلاء على مقدراتهم إن بفرض الاستسلام على هذه الأمة عبر إسرائيل، أو بشن الحروب ضدها عبر حجة تهديد العراق لجيرانه، أو عبر وضع استراتيجية كونية بهدف السيطرة على مقدرات المنطقة العربية وثرواتها.

(١٧١) تليف لوثاقي، مسيرة السلام، ص ١٤٨، سعيد، غزة - أريحا سلام أمريكي، المستقبل العربي، ص

تتمثل الاستراتيجية الكونية التي وضعتها الولايات المتحدة الأمريكية في العولمة (Globalization) التي تعني من بين ما تعنيه: "اندماج أسواق العالم في حقول التجارة والاستثمارات المباشرة وانتقال الأموال والقوى العاملة والثقافات ضمن إطار من حرية الأسواق، وبالتالي خضوع للعالم لقوى السوق العالمية، مما يؤدي إلى اختراق الحدود القومية، وإلى انحصار سيادة الدولة"^(١٧٥).

وقد برزت ظاهرة العولمة عقب انهيار الاتحاد السوفياتي، والتقدم السريع في مجال الاتصالات، وزيادة تشابك المصالح الدولية الاقتصادية، وهيمنة رؤوس الأموال الغربية على الأسواق. وكانت هذه الظاهرة أمريكية بالدرجة الأولى، وقد وجدت أمريكا في العالم العربي بشكل خاص تربة خصبة لترويجها، فعملت على تعميم هذه الظاهرة في كل المجالات الحكومية والسياسية والعالية والاجتماعية والتشريعات الضريبية والقضائية، وأنشأت الاستثمار في القطاعين العام والخاص.

وهكذا أصبح الغرب الصليبي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية بعد أن امتلك القوة العلمية والتكنولوجية يسعى إلى الهيمنة على عالمنا العربي، ليجعله جزءاً لا يتجزأ منه، يتخلق بأخلاقه، ويتشرب قيمه، ويفتح أسواقه لمنتجاته، وقد نجح الغرب في إخضاع مستقبل العرب لشروط عمل آليات العولمة الاقتصادية التي تقضي بإيقاعهم بعينين عن حركة التصنيع والاعتماد على الذات^(١٧٦).

وتفرض العولمة سياستها عبر مؤسسات دولية قوية أقامتها الدول الغربية الصليبية لفرض شروطها وإرادتها، وهذه المؤسسات التي سبقت الإشارة إليها هي صندوق النقد الدولي، والبنك الدولي، ومنظمة التجارة العالمية التي أصبحت تفرض علينا شرط الإصلاحات الاقتصادية وإلا فإنها لن تقدم أي مساعدات.

(١٧٥) كحمش، العولمة ليست الخيار الوحيد، ص ٢٦.

(١٧٦) جميل، الاقتصاد السياسي، مجلة الطريق، العدد ٣ لسنة ٥٨، ص ٤٧.

وغني عن القول أن تلك المؤسسات لا تقبل عضوية أي دولة في منظمة التجارة العالمية ما لم تقدم تلك الدولة شهادة حسن سلوك معتمدة من البنك الدولي وصندوق النقد الدولي تتضمن أنها، أي الدولة، تقبل الخضوع لكل شروط تلك المؤسسات لتصبح تحت وصايتها. والمخاطر التي يجب على عالمنا العربي أن يقننه لها وهو يقع في متناول أخطبوط العولمة الغربي كثرة، وأثارها مدمرة، فالعالم العربي سيجد نفسه أمام جيوش من البطالة نتيجة التخصص المفرط عليه، وسيشكل العاطلون عن العمل أعباء كبيرة مادية وأمنية، وسيترتب على ذلك زيادة الجريمة نتيجة انتشار تعاطي المخدرات، وانتشار الأوضاع التي ستفرضها أنماط وقيم وافدة. كما أن الاقتصاد الوطني سيخضع للشريك الاستراتيجي الذي تفرضه تلك المؤسسات، مما يعني أن ذلك الشريك هو الذي سيتحكم في الاقتصاد الوطني، وبالتالي فإن العالم العربي سيواجه مزيداً من الفقر بدلاً من الثراء المزعوم الذي يعد به أرباب رأس المال الغربيون.

والأخطر من تأثير العولمة في المجال الاقتصادي هو تأثيرها في المجال الثقافي، ذلك أن الاختراق الثقافي يعد من أبرز الأساليب التي تتبعها قوى العولمة الثقافية في صراعها مع الثقافة العربية الإسلامية، فالعولمة الثقافية ليست إلا نقلاً للثقافة الأمريكية بقيمتها ومفاهيمها. والعالم العربي اليوم أصبح يعيش تحت رحمة للشبكات الإعلامية العالمية، والضخ الإعلامي عبر الفضائيات والإنترنت، وهو مضطر إن لم يحصن نفسه إلى تقبل كل ما يفرضه الغرب دون اعتراض، وسيجد نفسه في نهاية المطاف ذا عادات وتقاليد وأنماط وسلوكيات غريبة، وقد تتغير حتى أنماط حياته اليومية متوهماً أن الأفضل والأرقى دائماً هو ما يأتي من الغرب المتقدم.

وما دام خطر العولمة لا يقل عن خطر الحروب التي شنها الصليبيون ضد المسلمين في الأندلس والمشرق، بل ربما كان أخطر، فإن ذلك يقتضي ضرورة التصدي لها عن طريق تعزيز هوية الفرد العربي المسلم، والجماعة العربية المسلمة، وكذلك العمل على بناء قاعدة من الاتصالات الحديثة تغطي أنحاء العالم، وتقوم على أسس أخلاقي نابع من ثقافتنا وشريعتنا المحمدية، لتزويد المشاهدين والمستمعين بما ينير عقولهم، ويجعلهم يدركون الفرق الشاسع بين وهم الحضارة الغربية وحقيقة الإسلام.

الخاتمة

إن ما تعرض له مسلمو الأندلس منذ خمسة قرون يتعرض له اليوم مسلمو فلسطين، ومسلمو البوسنة والهرسك وأذربيجان وكامبوديا وسورامبيق وأنغولا والصومال وأرتيريا، فكل أولئك يواجهون حروباً داخلية مفرجة لا تكاد تنطفئ حتى تعود إلى الاشتعال من جديد، وقد أطمع التتسنت والضعف والفرقة أعداء الإسلام والمسلمين بهذه الأمة في الماضي والحاضر.

فلسطين تتعرض وتعرض أهلها على أيدي العصابات الصهيونية لأكوان من القتل والتشريد والتعذيب، والشواهد الصارخة على ذلك ما زالت حية في الأذهان، وما زالت مذابح دير ياسين وكفر قاسم وفضائع الطنطورة وحرق الأسرى والعجزة وهم أحياء ويقر بطون الحوامل وإجهاضهن، وذبح الأطفال في حجور أمهاتهم، وتكسير العظام وهدم البيوت وغير ذلك من الأعمال الوحشية البربرية التي تتميز بها أيديولوجيتهم، كل ذلك ما زال يستصرخ الضمائر.

لقد أخرج الفلسطينيون من ديارهم بقوة الظلم، ومنطق الحراب، وهدير المدافع والنبايات والطائرات، أخرجوا وهم لا يحملون من مخاع الدنيا شيئاً سوى مفاتيح بيوتهم وحقوق ملكيتهم لأراضيهم التي ورثوها لأبنائهم وأحفادهم، كما ورثها الأندلسيون لأبنائهم لتبقى أمانة في أعناقهم على مر العصور تستهضئ الهمم لإعادة المجد التليد، واسترداد الأرض المسبية.

ينبغي أن لا يخفى أن عدااء العروبة والإسلام ينبع من الأيديولوجية الغربية التي تعذيبها الرأسمالية العالمية الحريصة على تبرير استغلالها وعدوانها مستعينة على ذلك بشتى وسائل إعلامها الرهيبة المتطورة.

وما جرى ويجري في فلسطين مما هو معروف، يجري الآن في اليوسنة والهرسك ذلك البلد الإسلامي الذي تكالبت عليه قوى الشر، وأخذت تطحنه لمجرد أنه مسلم، وأن أهله يتمكنون بإسلامهم.

وإذا كانت قصة الأندلس قد أصبحت معروفة لكل الأجيال كقضية أشيعها المؤرخون بحثاً، وإذا كانت قصة فلسطين المأساوية قد عششت في شرايين أبنائها وغيرهم من أبناء الأمة المسلمة الذين يتابعون أخبارها وأحوالها لحظة بلحظة، فإن قصة اليوسنة والهرسك ما تزال غير واضحة المعالم، ويكتنفها الغموض الذي لا بد من كشفه وإيضاح ملامسته.

تقع اليوسنة والهرسك في وسط غرب ما كان يعرف سابقاً باتحاد جمهوريات يوغسلافيا، وتبلغ مساحتها ٥١,١٢٩ كم^٢، ولما عدد سكانها فيبلغ نحو أربعة ملايين وثلاثمائة ألف نسمة، ٤٢,٧% منهم مسلمون، و٣١,٤% صرب، و١٧,٣% كروات، و٧,٧% من جنسيات أخرى.

وقد دخل الإسلام إلى اليوسنة والهرسك في القرن الخامس عشر، حيث تمكن العثمانيون من فتح أجزاء منها عام ١٤٦٢م على يد محمد الفاتح ثم أكملوا فتحها عام ١٥٢٨م، في عهد السلطان العثماني سليمان القانوني، وصارت بذلك ولاية عثمانية دان معظم سكانها بالإسلام، وقد تزامن ذلك مع خروج المسلمين من الأندلس.

ونظراً للسياسة العثمانية المتشددة خاصة فيما يتعلق بالضرائب، فقد تعامل البوسنيون وصربوا أكثر من مرة، إلا أن الدولة سرعان ما كانت تسيطر على تمردهم.

وفي عام ١٨٧٥م، في مرحلة ضعف الدولة العثمانية، قام مسيحيو الهرسك بتمرد وثورة امتدت إلى الصرب الأرثوذكسي، وظلت مشتعلة إلى أن تمكنت النمسا والمجر من احتلال اليوسنة والهرسك عام ١٨٧٨م. وفي عام ١٩٠٨م قامت الدولتان المحتلتان بإعلان ضمهما إليهما بموافقة الدول الأوروبية. وفي أثناء الحرب العالمية الثانية ألحقت اليوسنة وكرواتيا بملكية الصرب، وفي عام ١٩٤٥م جعلهما نيتو إحدى جمهوريات الاتحاد اليوگوسلوفاكى.

وقد بدأت مأساة البوسنة والهرسك عام ١٩٩١م إثر تفكك الاتحاد اليوغسلافي، إذ استقلت في البداية كرواتيا وسلوفينيا وهما جمهوريتان كاثوليكيان، ولم تستطع صربيا الأرثوذكسية منعهما لما حظيتا به من دعم مادي ومعنوي من أوروبا والعالم.

وفي شهر آذار من عام ١٩٩٢م أعلنت البوسنة والهرسك الاستقلال بعد استفتاء قامت به، وفي ١٩٩٢/٥/٢٢ قبلت عضوا في الأمم المتحدة، إلا أن صرب البوسنة لم يقبلوا بنتيجة الاستفتاء، وأعلنتوا الحرب على المسلمين هناك بدعم من صربيا التي تعمل على أن تبقى البوسنة تحت جناحها.

وهكذا اشتعلت حرب ضروس شنها الصرب ضد مسلمي البوسنة، ويعتبر الصراع هناك هو الأعنف في أوروبا منذ عام ١٩٤٥م، وضحيته هم المسلمون الذين حرموا من التزود بالسلاح الضروري للدفاع عن أنفسهم، بينما أُنيج للصرب من كل مكان، وكانت النتيجة مذبحة دامية وتشريداً وتدميراً وهناك لأعراض، وقد بلغ القتلى ١٢٨ ألفاً، والنساء المنصبات ٣٠ ألف امرأة، وتم اعتقال عشرات الآلاف الذين يتعرضون للتعذيب بالسمرار، وتم تشريد مليوني مسلم، وتميز مئات القرى وعشرات المدن، وتم هدم ما يزيد على ٦٠٠ مسجد، وحوضر ما يربو على ٤٠٠ ألف من المسلمين في سراييفو وغيرها من مدن البوسنة، وكانوا يموتون جوعاً، أو بوابل التيران، أو نتيجة البرد الشديد. فالعالم في البوسنة كان يفر من الموت إلى الموت، والعالم الإسلامي للضعيف المشت يتفرج دون أن يجرو حتى على قول كلمة حق.

لما أرض البوسنة فقد استولى الصرب على ٧٠% منها، واستولى الكروات على ٢٠%، وهناك اتفاقات خطيرة بين الصرب والكروات لاقتسام البوسنة.

وأما فيما يتعلق بأذربيجان المسلمة فهي إحدى الجمهوريات الست عشرة التي ألفت ما كان يعرف بالاتحاد السوفياتي، روسيا، كازيليا، استونيا، ليتونيا، ليتوانيا، روسيا البيضاء، أوكرانيا، مولدافيا، جورجيا، أذربيجان، أرمينيا، كازاخستان، تركمانستان، أوزبكستان، طاجيكستان، كيرغيزستان. ومشكلة أذربيجان - القوقاز - أنها تعاني من نيازات ونزاعات مختلفة، منها الحرب التي شنها أرمينيا ضد أذربيجان، والتي قد تؤدي إلى أوحش العواقب إذا لم يتم احتواؤها بصورة سريعة وفعالة تقبل بها جميع الأطراف

المتخاصمة، وإلا ستكون الحال كما آلت إليه دولة المسلمين في البوسنة والهرسك، وستند إلى دول البلقان لتفجع المسلمين فيها. والذي يظهر واضحاً في هذا الصراع هو الكراهية للإسلام والمسلمين، ليس فقط من الصرب والكروات، ولكن أيضاً من أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية.

فالصرب يرفعون الصليب في قتالهم مع المسلمين، وهو ما كان يفعله الفرقة أثناء الحروب الصليبية ضد الإسلام في القرون الوسطى، وقد صرح عدد من زعماء الصرب أنهم يخوضون الحرب دفاعاً عن أوروبا لحمايتها من الإسلام. والمساجد تدمر وتُحرق، وقد صرح الرئيس الفرنسي ميتران لرئيس البوسنة عندما التقاه: لا نريد دولة أصولية (إسلامية) في أوروبا. وما قاله ميتران لا يختلف عما قاله ميجر، رئيس وزراء بريطانيا، حيث أكد في توجيهاته لوزير خارجيته أن البوسنة المسلمة يجب أن تدمر حتى لا تقوم للمسلمين قائمة في أوروبا.

نقول لهذا الأعداء، أعداء الإسلام، إن المسلمين كما جاء في الآية الكريمة في سورة البقرة (الآية ٢٨٥)، يؤمنون بالملائكة والكتب السماوية المختلفة، والأنبياء جميعاً، وهم لا يميزون بين كتاب سماوي وآخر، ولا يفضلون نبياً على نبي، فالأمة الإسلامية لم تعرف التعصب الديني، ولم تسع إليه في يوم من الأيام، وقد كان المسلمون في شتى الأزمنة وما زالوا مثلاً للتسامح بين الأديان.

ذلك لأن الكتب السماوية جميعها تأتي في نظر المسلمين منسجمة مع بعضها، خالية من التناقض الذي قد يتوهمه البعض لأنها كلها تنهل من معين واحد. وما حدث في الأندلس، تلك البلاد التي فتحها المسلمون وأسسوا فيها حضارة إسلامية عريقة أضاعت بأنوارها غياهب الجهل الأوروبي، إلا أنها انتهت على النحو الذي ذكرنا بتوقيع المعاهدة المشؤومة، ولكن بعد تسليم غرناطة عامل التصاري الإسباني المسلمين معاملة غير إنسانية، فقد مارسوا ضدهم شتى ألوان القمع والاضطهاد بغية التصيير أو التهجير، الأمر الذي يجعلنا نقول إن المسلمين أيام حكمهم للأندلس أبغوا للإسبان الحرية الدينية الشاملة، التي ضمنت لهم حقوقهم الإنسانية وكرامتهم بغض النظر عن دين كل واحد منهم أو جنسه أو لونه أو لغته. وكذلك سمحت لهم بالبقاء على دينهم في البوثة الإسلامية يمارسون فيها طقوسهم الدينية دون أي تدخل أو شطرف، وعلى هذا التسامح الديني قام البناء الحضاري

الاندلسي الراسخ الشامخ ردها طويلاً من الزمن، وما زالت آثاره ماثلة للعيان. هكذا خلت نظرة الإسلام من التمييز بين البشر على أساس اختلافهم في الجنس والعرق واللون واللسان، بعكس نظرة الغرب وزعمائه.

إن المسلسلات الإجرامية ضد الإسلام والمسلمين لا يكاد ينتهي أحدها حتى يبدأ الآخر. ويجدر بنا نحن العرب أن ندرك أن القوي عندما يتعهد للضعيف لن يتردد أبداً في نقض عهده أو تعهده متى وجد في ذلك تحقيقاً لمآربه، ولن يعدم الوسيلة لإسباغ ثوب المثالية والإنسانية والحرص على العمل على سياسته الفاترة. وهذا هو سر السياسة اليهودية والأمريكية والأوروبية إزاء العرب والمسلمين، إنهم يتعهدون، ولكنهم لا يلتزمون بعهد متى أصبح ذلك الالتزام ضد مصالحهم، أو حد من أطماعهم وغاياتهم الشريرة في القضاء على معالم تلك الحضارة الإسلامية العظيمة، والسيطرة على ثروات المسلمين.

إنهم يفتنون كل يوم أن الصدق والإخلاص والأمانة، لها في السياسة معان غير معانيها، وكأن السياسة ولدت من رحم الغش والخداع.

ولم يتعلم العرب والمسلمون ولم يعتبروا من المرة الأولى، ولا تعلموا، ولا اعتبروا من المرة الثانية، ويبدو أنهم لن يتعلموا أبداً، ولن يعتبروا حتى وإن لدعوا ألف مرة، مع أن المؤمن لا يلدغ من حجر واحد مرتين. ما أصعب حياة الاستسلام والركون إلى حياة الذل والإهانة، فلما الموت في ميدان الشرف أو الحياة في ظلال القوة والعزة، فالإن العاطفة الدينية لدى المسلمين؟ ولئن القومية العربية لكي يهبوا من أجل إنقاذ الأرض والتراث والمقدرات التي يعبث بها العدو كما يشاء؟ أو يهبوا لإنقاذ الأمة الجريحة في كرامتها التي ذلقت وما تزال مصنوفة من العذاب، وغاشت في لولخر أيامها تاريخاً مليئاً بالكربات والكوارث.

أين هو العالم الإسلامي ليتخذ موقفاً متوحداً إيجابياً من أجل إنقاذ من يمكن إنقاذهم من المسلمين الذين يشردون وينصرون ويقتلون في كل مكان.

لقد فتحت دول أوروبا جميع أبوابها أمام هجرة الأطفال المسلمين من اليوسنة والهرسك مظهرة الشفقة والعطف، ولكن الحقيقة غير ذلك، فهي تسعى بشكل حثيث ومواصل لتلقيهم الديانة المسيحية كما فعل الإسبان بأبناء المسلمين.

ويستخدم الغرب ضد العرب المسلمين أساليب وحشية عديدة فهو إضافة إلى استعمال قوة الحديد والذار يلجأ إلى التنويه والتفريق وإلى الخداع والنس والوقعة بين العرب والمسلمين أنفسهم ليهزم بعضهم بعضاً، ويزيد من تشتتهم وفرقتهم وتباعد ما بينهم، ونقطيع ما يقرب بينهم من وشائج، ومن المظاهر الدالة على تحكم غير العرب في الشؤون العربية ما يلاحظ في الآونة الأخيرة لدى النظر في سجل حرب الخليج ونتائجها التي انتهت إليها من نكسة للأمة العربية واستنزاف خيراتها وإعاقلة وحدتها وإراقة دماء أبنائها. ونقول لبعض الحكام العرب أن استمراركم في الخضوع لأنظمة حكم غير عربية، وسماحكم للتدخل القوى الخارجية في شؤوننا العائلية كما كان يحدث أيام حكم ملوك الطوائف بالأندلس، ومساعدتكم في تحويل الرابطة القومية من عامل وحدة إلى عامل فرقة واستضعاف، بالرغم من كثرة عدداً واتساع أرضنا ووفرة مائنا، لقولها صراحة بأمانة وصديق، أن التاريخ لا يرحم، وسيسجل ما لنا وما علينا. وما وقع بين العراق والكويت مثل على ما سيرصده من هفواتنا الكبيرة، إن أعدائنا يمهنون بما يفعلون إلى نشر الفساد في أمة العرب، وتدمير قوتها، فقد خلفوا ظروفاً حرجية أتاحت لهم التدخل في شؤوننا الداخلية، وأحكموا الحصار الاقتصادي والسياسي والعسكري على العراق لإضعافه وإخضاعه وتحطيم قوته حتى لا تقوم له قائمة، ويظل راعياً للقوى العالمية المناوئة للعروبة والإسلام لينفذ رغباتها دون أدنى قدرة على المقاومة، ونتيجة ذلك كله سيكون الفقر والتشرد والحرمان للأمة، ثم كسر الروح العربية التي سيعقبها - لا سمح الله - الضمحلل هذه الأمة وهو ما يسعون إليه.

وعلى الأمة العربية أن تدرك ذلك جيداً، وأن تدرك أيضاً أن مصلحتها في الاعتماد على نفسها، وقوة جيوشها، ووعي مواطنيها لا يضاعفها بانعوا الكلام ومصدرو الأحكام، وإلا ظلت تجري وراء برق خلب، ولا يد من نواة صالحة تجمع الزهراء والشرفاء من أمة العرب والمسلمين على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، هذه النواة هي التي توثق الألفة والمحبة والإخاء بين هذه الشعوب.

إن ما آلت إليه الحال في الأنتلس يجب أن لا تؤول إليه في فلسطين، مهما كثرت الجرائم، وسلبت الحقوق وهدمت صروح الأخلاق ومدت الأيدي الأثيمة إلى معازل الدين الذي أصبح خطراً - من وجهة نظرهم - يهدد أمنهم واستقرارهم، أقول مهما اشتدت تلك العواصف ومهما قصفت رعود الباطل، وبوت أصوات مدافع الظلم والطغيان من ملة الإلحاد، أقولها صراحة أنها لن تؤثر في أممتنا العربية الإسلامية إن كنا قد حافظنا على كتاب الله وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، ويجب علينا أن نكون أشد حرصاً، وأكثر حذراً، لكي لا نقع في المحذور مرة أخرى، فإن للباطل جولة قصيرة ثم يضمحل وكلمة الله هي العليا، والعقل من اعظم.

المصادر والمراجع

أ. المصادر:

أولاً - الكتب:

- الإبريمي، أبو عبد الله محمد بن محمد الحسيني (ت ٥٦٠هـ):
- صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأنتس، مأخوذة من كتاب تزهة المشتاق
في أخبار الأفاق، لندن، مطبعة بريل، ١٩٦٨م.

- ابن إياس، محمد بن أحمد بن إياس الحنفي:
- بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة، الهيئة المصرية
العامة للكتاب، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

- ابن الأثير، الشيخ العلامة عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد
الكريم بن واحد الشيباني (ت ٦٣٠هـ):
- الكامل في التاريخ، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٨٥هـ/
١٩٦٥م.

- ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبد الله محمد السلماني (ت ٧٧٦هـ/١٣٧٤م):
- الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، القاهرة، مكتبة الخانجي،
د.ت.
- اللوحة البدرية في الدولة النصرية، بيروت، دار الأفاق الجديدة، ط٢، ١٩٧٨م.

- ابن الكردبوس، أبو مروان عبد الملك (ت بعد ٦٧٣هـ):
- تاريخ الأنتس، تحقيق أحمد مختار العبادي، مدريد، معهد الدراسات الإسلامية،
١٩٧١م.

- ابن خلدون، عبد الرحمن (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٨م):
- تاريخ ابن خلدون (نبوأن المبدأ والخير في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من
تدوي الشأن الأكبر، ضبط خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، بيروت، دار الفكر،
١٩٨١م.

أين سعيد، أبو الحسن علي موسى (ت ٦٧٢هـ/١٢٧٤م):

- المغرب في حلي المغرب، تحقيق شوقي ضيف، القاهرة، دار المعارف بمصر، ط٢، د.ت.

أين عذاري العراقي، أبو العباس أحمد بن محمد (ت ٦٩٥هـ/١٢٩٥م):

- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة: ج. س. كولان وليفي، بروكسل، بيروت، دار الثقافة، ط٢، ١٩٨٢م.

البيكري، أبو عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب بن عمرو (ت ٤٨٧هـ/١٠٩٤م):

- جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب المسالك والممالك، تحقيق عبد الرحمن الحجى، بيروت، دار الإرشاد للطباعة، ١٩٦٨م.

الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم (ت ٩٠٠هـ/١٤٩٥م):

- الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت، مكتبة لبنان، ١٩٧٥م.

- صفة جزيرة الأندلس ملخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، بشر ونصحيح وتعليق ليفي بروكسل، بيروت، دار الجليل، ط٢، ١٩٨٨م.

العذري، أحمد بن عمر بن أنس (ت ٤٧٨هـ/١٠٨٥م):

- نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار، والبستان في غرائب البلدان، والممالك إلى جميع الممالك، تحقيق عبد العزيز الأهواني، مطبعة مطبعة معهد الدراسات الإسلامية، ١٩٦٥م.

مجهول:

- نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر، تحقيق ألفريد بستانى، العراق (المغرب)، د.ت، ١٩٤٠م.

المراكشي، محي الدين عبد الواحد بن علي (ت ٦٢٠هـ/١٢٢٩م):

- المعجب في تلخيص أخبار المغرب (من لندن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين)، تحقيق محمد سعيد العربي ومحمد العربي العلمي، القاهرة، مطبعة الاستقامة، ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م.

الحقري، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني (ت ١٠٤١هـ):

- نفح الطيب من غصن الأندلس للطبيب، تحقيق الدكتور إحسان عباس، بيروت، دار صائير، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.
- أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وحافظ شلبي، القاهرة ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م.

الناصرى، أبو العباس أحمد بن خالد:

- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق ولدي المؤلف: الأستاذ جعفر الناصري والأستاذ محمد الناصري، الدار البيضاء، دار الكتاب، ١٩٥٦م.

النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣هـ/١٣٣٢م):

- نهاية الأرب في فنون الأدب، الجزء الرابع والعشرون، تحقيق الدكتور حسين نصار، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٣م.

ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي:

- معجم البلدان، بيروت، دار الكتاب العربي، د.ت.

- فرناندو دي زافرا (سكرتير الملكين الكاثوليكين):

- Las Capitulaciones para la entrega de Granada por Miguel Garrido Alienza (Granada 1910).
- M. GASPAR REMIRO: Documentos Arabes de la Corte Nazari de Granada. "Primeros pactos y correspondencia íntima entre los Reyes Católicos y Boabdil". Revista de Archivos, Bibliotecas y Museos. Madrid I. 910 Tomo XXII, Pags. 260-269 y 421-431 y XIII, Pags. 137-148 y 411-423.

- الوثيقة رقم (P.R. Leg II. Fol 206) والوثيقة رقم (P.R. Leg II. Fol 203) وهما وثيقتان سريتان مخطوطتان من وثائق دار المحفوظات العامة في سيمانكاس (Archivo General De Simancas) ويمكن العثور عليهما ضمن مجموعة (Capitulaciones Con moros Y Caballeros de Castilla

أبو رميلة، هشام:

- علاقات الموحدين بالممالك النصرانية والدول الإسلامية في الأندلس، عمان، دار الفرقان، ١٩٨٤م.

ابن الحسين، عبد الله:

- الآثار الكاملة (حقة من تاريخ الأردن)، بيروت، الدار المتحدة للنشر والتوزيع، ١٩٨٥م.

ابن طلال، الأمير الحسن:

- المعى نحو السلام، القاهرة، مطابع الأهرام التجارية، ١٩٨٥م.

أبو عمرو، زياد:

- قراءة تحليلية للاتفاق الفلسطيني - الإسرائيلي (غزة - أريحا أولاً)، نابلس، مركز البحوث والدراسات الفلسطينية، أيلول ١٩٩٢م.

آل خليفة، خالد:

- التأثير البرتغالي على التجارة في الخليج العربي خلال القرن السادس عشر، ندوة: مكانة الخليج العربي في التاريخ الإسلامي من سقوط بغداد إلى نهاية الاستعمار البرتغالي (٦٥٦-١٠٦٤هـ/١٢٥٨-١٦٥٠م)، كلية الآداب، جامعة الإمارات العربية المتحدة، العين، ١٩٩٠م.

أمين، عبد الأمير محمد:

- دراسات في النشاط التجاري والسياسي الأوروبي في آسيا ١٦٠٠-١٨٠٠م، عمان، منشورات الجامعة الأردنية، ١٩٨٧م.
- المصالح البريطانية في الخليج العربي (١٧٤٧-١٧٧٨م)، بغداد، مطبعة الإرشاد، ١٩٧٧م.
- نظرة جديدة للإنجازات السياسية والعسكرية والتجارية البرتغالية في آسيا

”دراسة في عوامل تنهوض الإمبراطورية البرتغالية وإنحلالها”، الجامعة الأردنية، مجلة دراسات، المجلد الخامس عشر، العدد السابع، ذو القعدة ١٤٠٨ هـ/ تموز ١٩٨٨م.

الطريق، عبد الحميد وعبد العزيز نوار:

- التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة إلى مؤتمر فيينا، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٧١م.

بيك، فريدريك:

- تاريخ شرقي الأردن وقبائلها، ترجمة بهاء الدين طوقان، عمان، دار العربية للتوزيع والنشر، ١٩٣٥م.

الجعل، شوقي عطا الله:

- المغرب العربي الكبير في العصر الحديث، القاهرة، ١٩٧٧م.

الجميل، حميد:

- الاقتصاد السياسي ومستقبل الاقتصاد العربي، مجلة الطريق، العدد ٣، السنة ٥٨، بيروت، ١٩٩٩م.

حاتمة، محمد عبده:

- الأندلس - التاريخ والحضارة والمحنة (دراسة شاملة)، عمان، مطابع الدستور التجارية، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

- أيبيريا قبل مجيء العرب المسلمين، عمان، مطابع المؤسسة الصحفية الأردنية (الرأي)، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

- موسوعة النهار الأندلسية، عمان، دن، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

- محنة مسلمي الأندلس عشية سقوط غرناطة وبعدها، عمان، دن، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

- التفسير القسري لمسلمي الأندلس في عهد الملكين الكاثوليكين، عمان، دن، ١٩٨٠م.

الحجي، عبد الرحمن علي:

- التاريخ الأنثسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، دار الفلم، دمشق، بيروت، الكويت، الرياض، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.

الحمد، جواد:

- المؤتمر الإقليمي للسلام في الشرق الأوسط من ٩-١٠ أيلول ١٩٩١م، عمان، مركز دراسات الشرق الأوسط، ١٩٩١م.

الحمداني، طارق نافع:

- دور عرب عمان في إقصاء البرتغاليين عن الخليج العربي خلال النصف الأول من القرن السابع عشر، مجلة معهد البحوث والدراسات العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ج ١٣، ١٩٨٤م.

الحميش، منيرة:

- العولمة ليست الخيار الوحيد، دمشق، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٨م.

الخلايلة، أحمد عبد الرحيم سالم:

- الاستراتيجية الأردنية وارتباطها بالقضية الفلسطينية (جذورها - حاضرها - مستقبلها)، عمان، المطابع العسكرية، ١٩٩٨م.

الدجاني، محمد ومنذر سليمان:

- التدخل إلى النظام السياسي الأردني، عمان، بالمينو برس، ١٩٩٣م.

رضوان، نبيل عبد الحى:

- جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس واسترداده في مطلع العصر الحديث، مكة المكرمة، د.ن، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

رفعت، نادية وعمر وحمودة:

- المؤسسة العسكرية الإسرائيلية، القاهرة، سينا للنشر، ١٩٩١م.

الروسان، ممنوح:

- العراق وقضايا الشرق العربي القومية ١٩٤١-١٩٥٨م، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٩م.

زابوروف، ميخائيل:

- الصليبيون في الشرق، ترجمة إلياس شاهين، موسكو، دار النظم، ١٩٨٦م.

سالتجر، بيار وأرك ثوران:

- حرب الخليج، باريس، أوليفيه أوريان، شباط ١٩٩١م.

سعيد، إدوارد:

- غزة - أريحا سلام أمريكي، القاهرة، دار المستقبل العربي، أيلول ١٩٩٣م.

الشقيري، أحمد:

- الجامعة العربية كيف تكون وكيف تصبح عربية، دار بوسلامة للطباعة والنشر، تونس، ١٩٧٩م.

الشوا، سفيان:

- مستقبل السلام في الأرض المقدسة، عمان، دار الشرق للنشر والتوزيع، ١٩٩٤م.

الصيرفي، نوال حمزة يوسف:

- النفوذ البرنغالي في الخليج العربي في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، الرياض، مطبوعات دار الملك عبد العزيز، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

الطبي، أمين توفيق:

- دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، تونس، الدار العربية للكتاب، ١٩٨٤م.

- الوطن العربي والمستجدات الإقليمية والدولية، محاضرة أقيمت في مؤسسة شومان بتاريخ ٢٠/١٠/١٩٩٧م، عمان، ١٩٩٩م.

عريقات، صائب:

- السلام على السلام (١٩٦٧-١٩٨٧م)، القدس، منشورات البيان، آذار ١٩٨٧م.

عنان، محمد عبد الله:

- عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القاهرة، د.ن، ١٣٨٣-١٣٨٤هـ/١٩٦٤م.

- نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، القاهرة، د.ن، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م.

الغيمى، محمد طلعت:

- جامعة الدول العربية - دراسة قانونية سياسية، منشأة المعارف بالإسكندرية، ١٩٧٤م.

قلعجي، قلزي:

- الخليج العربي، دار الكتاب العربي، د.ن.

القيسي، عبد الوهاب عباس:

- المجابهة البرتغالية - العثمانية في المهاد العربية، أبحاث ندوة رأس الخيمة التاريخية (الاستعمار البرتغالي في الخليج العربي وشرق إفريقيا)، الجزء الأول، الاستعمار البرتغالي في الخليج العربي.

كامل، محمد إبراهيم:

- السلام الضائع، اتفاقيات كامب ديفيد، الرياض، الشركة السعودية للأبحاث والتسويق، ١٩٨٤م.

مؤسسة الدراسات الفلسطينية:

- المعاهدة المصرية الإسرائيلية، نصوص وردود فعل، بيروت، ١٩٧٩م.

- فجر الأندلس، دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية (٧١١-٧٥٦م)، القاهرة، الشركة العربية للطباعة والنشر، ١٩٥٩م.

مليكل، دجيب:

- الأسرار المذهبة للكارثة الفلسطينية - أي الفريقين أشد ذرعة للإجرام والشر، ترجمة وتعريب الدكتور فهمي شعا، عمان، جمعية عمال المطابع التعاونية، ١٩٩٠م.

محافظة، علي:

- العلاقات الأردنية البريطانية (من تأسيس الإمارة حتى إلغاء المعاهدة ١٩٢١-١٩٥٧م)، بيروت، دار النهار للنشر، ١٩٨٥م.

محمد، عبد القوي فهمي:

- القواسم، نشاطهم البحري وعلاقاتهم بالقوى المحلية والخارجية ١٧٤٧-١٨٥٣م، د.ن، د.ت.

المدفعي، مديحة:

- الأردن وحرب السلام، ترجمة رشيد أبو غيدا، عمان، مكتبة برهومة للنشر والتوزيع، ١٩٩٣م.

المطوي، محمد العروسي:

- الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، تونس، د.ن، ١٩٨٢م.

الملف الوثائقي:

- مسيرة السلام على المسارين الأردني - الإسرائيلي والفلسطيني - الإسرائيلي، منشورات دائرة المطبوعات والنشر، كانون الأول، ١٩٩٣م.

موسى، سليمان:

- من تاريخنا الحديث: الثورة العربية: الأسباب والمبادئ والأهداف، شرقي الأردن قبل تأسيس الإمارة، عمان، لجنة تاريخ الأردن، ١٩٩٤م.
- تاريخ الأردن في القرن العشرين (١٩٥٨-١٩٩٥م)، عمان، مكتبة المحض، ١٩٩٦م.

الهداوي، عبد السميع سالم:

- الصهيونية بين الدين والسياسة، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧م.

الهزايمة، محمد عوض:

- الأنثروبولوجيا والسياسة الخارجية (دراسة مقارنة)، تونس، الجامعة التونسية، كلية الحقوق والعلوم السياسية، ١٩٩٦م.

هلال، علي الدين:

- أمريكا والوحدة العربية ١٩٤٥-١٩٨٢م، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٩م.

الهور، منير وطارق موسى:

- مشاريع التسوية للقضية الفلسطينية (١٩٤٧-١٩٨٥م)، عمان، دار الجليل للنشر، ط٢، ١٩٨٦م.

اليوسف، عبد القادر أحمد:

- علاقات بين الشرق والغرب في القرنين الحادي عشر الهجري/ الخامس عشر الميلادي، صيدا، لبنان، ١٩٦٩م.

معاهدة تسليم غرناطة*

المعقودة بين أبي عبد الله الصغير، والملكين الكاثوليكين؛ ضون فرديناند
وضونيا ايسابيلا بتاريخ ٢١ محرم، سنة ٨٩٧هـ الموافق ٢٥ تشرين الثاني سنة
١٤٩٢م بمرج غرناطة (المعسكر الملكي)

المادة الأولى:

على ملك غرناطة والقادة والفقهاء والحجاب والعلماء والمفتين والوجهاء، بمدينة غرناطة
والبيازين وضواحيهما أن يسلّموا إلى صاحبي السمو، أو من ينتدبانه للنيابة عنهما، في مدة
أقصاها ستون يوماً، اعتباراً من ٢٥ تشرين الثاني عام ١٤٩٢م معاقب الحمراء، والبيازين،
وأبواب تلك المعقل، وأبراجها، وأبواب المدينة المذكورة، والبيازين، وضواحيهما، وأبراج
أبواب المدينة المذكورة. وضمن هذه الشروط بأمر صاحبا السمو بأن لا يصعد أي نصراني
الصور القائم بين الحمراء والبيازين لنلا يكشف عورات المسلمين في بيوتهم، وإن خالف أحد هذه
الأوامر يعاقب عقوبة شديدة، وضمن هذا الشرط سيقدم المسلمون الطاعة والإخلاص والولاء
كاتباً مخلصين لصاحبي السمو.

وضمناً لسلامة تنفيذ هذه البنود، يقدم أبو عبد الله الصغير ملك غرناطة إلى صاحبي
السمو خمسمائة شخص من أبناء وبنات عليّة القوم، في المدينة، والبيازين، وضواحيهما، وذلك
قبل تسليم الحمراء بيوم واحد، مصطحبين معهم الحاجب يوسف بن قماشة، ليكونوا جميعهم
رهائن لدى صاحبي السمو، لمدة عشرة أيام، يتم خلالها ترميم المعقل المذكورة، شريطة أن
يعامل الرهائن إلى حين انتهاء هذه الفترة معاملة حسنة. وفي نهاية الأجل، يرد الرهائن إلى ملك
غرناطة، ويراعي هذه الاتفاقية صاحبا السمو، ولينهما ضون خوان وسلاكتهم. ويعتبر أبو عبد
الله الصغير، وسائر قائنته، وجميع سكان غرناطة، والبيازين، وضواحيهما، وقراهما،
وأراضيها، والقرى والأماكن التابعة للبشرات؛ رعياً طبيعياً، ويتقون تحت رعايتهم ودفاعهم.
وتترك لهم جميع بيوتهم وأراضيهم، وعقارهم وأموالهم حالياً، ودائماً دون أن يلحق بها أي
ضرر، أو حيف. وأن لا يؤخذ أي شيء منها بخصمهم، بل بالعكس، سيتم احترام الجميع
ومساعدتهم، ويتقون المعاملة الطيبة، من قبل صاحبي السمو، وشعبهما كخدم وأتباع لهما.

* انظر نص المعاهدة في: ختامة، الأندلس: ٦٣٦ وما بعدها؛ التفسير القسري لمسلمي الأندلس في
عهد الملكين الكاثوليكين: ١٩ وما بعدها.

المادة الثانية:

في الوقت الذي يتسلم صاحباً للسمو، قصر الحمراء، بأمران ألقاهما، بالدخول من بابي العشار، ونجدة، ومن الحقل القائم خارج المدينة، وعلى من يعين لاستلام الحمراء، أن لا يدخل من وسط المدينة.

المادة الثالثة:

في اليوم الذي يتم فيه تسليم الحمراء، والبيازين، وشوارعهما، وقلاعهما، وأوابقهما، وغير ذلك يقوم صاحباً للسمو، بتسليم ابن الملك أبي عبد الله الصغير، المحتجز في قلعة موكلين، مع سائر الرهائن الموجودين معه، وسائر الحشم، والخدم الذين كانوا يرفقته، ولا يكرهون على التنصر أثناء احتجازهم.

المادة الرابعة:

يسمح صاحباً للسمو، وسلاطينها، للملك أبي عبد الله الصغير وشعبه أن يعيشوا دائماً ضمن قانونهم (أي بممارسة الشعائر الإسلامية) دون المساس بسكانهم، وجوامعهم، وأبراجهم، وسيأمران بالحفاظ على مواردهم، وسيدلّكمون بموجب قوانينهم، وقضائهم، حسبما جرت عليه العادة، وسيكونون موضع احترام من قبل الخصاري، كما تحترم هدايتهم وتقائدهم إلى غير حين.

المادة الخامسة:

لن تصادر من المسلمين أسلحتهم، أو خيولهم، أو أي شيء آخر حاضراً وإلى الأبد، باستثناء الذخيرة الحربية التي يجب تسليمها لصاحباً للسمو.

المادة السادسة:

يسمح لمن يرغب في الجواز إلى العدو أو أي مكان آخر من أهالي غرناطة، والبيازين، والبشرات، والمناطق الأخرى التابعة لمملكة غرناطة، ببيع ممتلكاتهم، وأراضيهم لمن شاؤوا، وأن يحاول صاحباً للسمو، وذريتهما منعهم من ذلك أبداً، وإذا ما رغب صاحباً للسمو بشرائهما، من أموالهما الخاصة، فثانها في ذلك شأن سائر الناس، ولكن الأولوية تكون لهما.

المادة السابعة:

الأشخاص الذين يرغبون في العبور إلى العدو (أرض المغرب) تجهز عملية نقلهم، في غضون سبعة يوماً من تاريخه، على متن عشر سفن كبيرة تتوزع على الموانئ القريبة منهم

حسب رغبة البحريين، ليحملوا أحراراً وطوخ إرانتهم إلى المكان الذي يرهبون النزول إليه، فيما وراء البحر (أرض المغرب) خاصة المواثي التي كانت ترسو بها تلك السفن.

أما الأشخاص الذين يرهبون في العيور في غضون الأعوام الثلاثة القادمة، فهنا لهم السفن الخاصة، من المواثي القريبة لمكان إقامتهم، شريطة أن يقدموا طلباتهم قبل موعد الرحيل بخمسين يوماً، وينقلون برعاية خاصة، إلى الميناء الذي يرهبون بالنزول فيه.

ولا يترقب على من يريد العيور إلى العدة - خلال الأعوام الثلاثة هذه - أجر أو نفقة. أما الذين يرهبون في العيور بعد انتهاء الأعوام الثلاثة فعليهم دفع دويلة واحدة فقط عن كل شخص. أما الذين لا يتمكنون من بيع أملاكهم الموزعة في جميع أنحاء مملكة غرنامة قبل سفرهم، فيحق لهم تفويض أي شخص من أجل تحصيل حقوقهم، وليقوموا مقامهم، ويتولوا بعد ذلك إرسال هذه الحقوق لأصحابها أينما كانوا، وبدون أية عوائق.

المادة الثامنة:

لا يرغم صاحب السمو، وسلاطنتها حاضراً وإلى الأبد المسلمين، وأعقابهم على وضع أية شارة مميزة للملايسهم.

المادة التاسعة:

لا يحق لصاحبي السمو، لمدة ثلاث سنوات من تاريخه، تحصيل الأتاوات من الملك أبي عبد الله الصغير، وسكان غرنامة، والبيلازين، وأرباضهما، وهي الأتاوات التي يترقب أدلاها عن دورهم وللاكلهم الموروثة، بل يكفي أن يدفع المسلمون لصاحبي السمو، عشر الخبز والذرة، وعشر المواثي خلال شهري أبريل ومايو.

المادة العاشرة:

على الملك أبي عبد الله، وسائر سكان المملكة الذين شعلتهم هذه الاتفاقية، أن يطلقوا سراح جميع الأسرى النصراني الذين في قبضتهم، أو في أي مكان آخر طواعية، ودون أية فدية، وذلك حين تسليم المدينة.

المادة الحادية عشر:

على صاحبي السمو أن لا يستخدما أي رجل من أتباع أبي عبد الله، أو سكان المملكة، لو أن بسطرا نوابهم في غرض دون إرانتهم، ودون أن يدفع لهم أجورهم.

المادة الثانية عشر:

لا يسمح لأي نصراني بدخول المساجد، أو أي مكان لعبادة المسلمين، دون إذن من الفقهاء، ومن يخالف ذلك يعاقبه صاحب السمو.

المادة الثالثة عشر:

لا يجوز لأي يهودي أن يتولى الجباية، أو تحصيل الضرائب من المسلمين بشكل مباشر، أو أن يمنح أية سلطة أو ولاية عليهم.

المادة الرابعة عشر:

يعامل صاحب السمو الملك أبا عبد الله الصغير وسائر زهاد الذين شملتهم هذه المعاهدة معاملة شريفة وتحترم عاداتهم وتقاليدهم، وتمنح للقادة والفقهاء الحقوق، وتبقى الحقوق التي كان يتمتع بها هؤلاء زمن أبي عبد الله الصغير على حالها، ويعترف لهم بذلك الحقوق*.

المادة الخامسة عشر:

يجب أن يقضى في أية دعوى أو مشكلة تقع بين المسلمين القضاة وفقاً لأحكام تشريعة الإسلامية كما حرت عليه العادة.

المادة السادسة عشر:

يصدر صاحب السمو أوامرهما للمسلمين بعدم إيذاء الضيوف من النصارى، أو إخراج الشباب أو الدواجن أو الثواب، ويشمل ذلك صاحبي السمو وجماعتهما؛ إذ يمنع على هؤلاء النصارى دخول بيوت المسلمين، واستعمال مضانيهم لإقامة الحفلات.

المادة السابعة عشر:

إذا دخل نصراني منزل مسلم قسراً، يطلب صاحب السمو من العدالة إيقاع العقوبة عليه.

المادة الثامنة عشر:

كل ما يتعلق بقضايا التركات عند المسلمين، يجب أن ينظر بها القضاة المسلمون، وفق النظم الإسلامية المتبعة.

* الحقوق التي كانت لهم عند الله الصغير تشمل: الاحترام، والمنح من صياح وإقطاعات، وأموال نفقة، وحرية التنقل، وأحقية القضاء حسب نصوص الشريعة الإسلامية، وكل ما يترتب على الملكية، من حق في البيع، أو الهبة، أو ما إلى ذلك.

المادة التاسعة عشر:

تشمل هذه المعاهدة فاطمي الأحياء المجاورة لمدينة غرناطة، وسكان القرى والأرجاء التابعة للمدينة، والبشرات، وأماكن أخرى بما في ذلك الأشخاص الذين قد يقتلون المعاهدة بعد مرور ثلاثين يوماً من تسليم غرناطة، ويمنع هؤلاء بجميع الإعفاءات الممنوحة خلال السنوات الثلاث.

المادة العشرون:

يتولى الفقهاء (إدارة) إيراد الجوامع، والحفلات الدراسية فيها، وما يرصد من أجل الصدقة، أو عمل الخير، بما في ذلك إيرادات المدارس التي تنفق في تعليم الصبيان، ولا يحق لصاحبي السمو التدخل بأي حال من الأحوال في شأن هذه الصدقات، أو الأمر بمصادرتها في أي وقت في الحاضر أو فيما بعد.

المادة الحادية والعشرون:

لا يجوز لمن يتولى القضاء إصدار قرارات ضد أي مسلم بذنب اقترفه آخر؛ فلا يؤخذ الأب بذنب ابنه، ولا قولد بذنب والده، ولا الأخ بذنب أخيه، ولا القريب بذنب قرابته، بل تقع العقوبة على من يقترب الجرم.

المادة الثانية والعشرون:

يقرر صاحب السمو العقور عن المسلمين من لتياع لقلند حميد أبي علي الذين كانوا يهودون عن خصومتهم، ضد هجمات النصارى، ولا يطلب أي تعويض عن قتل من النصارى لقاء اصطدامهم مع المدافعين من المسلمين، أو عما أخذ المسلمون من المكاسب في ذلك المكان في الحاضر أو فيما بعد.

المادة الثالثة والعشرون:

يغفر صاحب السمو لمسلمي مدينة الكابلي، هجماتهم واعتداءاتهم التي كانت تستهدف حرس الملكين، وتمنح لهم حرية العيش كبقية إخوانهم الذين شملتهم هذه المعاهدة.

المادة الرابعة والعشرون:

يعتبر صاحب السمو جميع لسرى المسلمين، أو القارين من الأمر إلى مدينة غرناطة، والبيازين، وأرياضهما، أو إلى أي ناحية تابعة لمدينة غرناطة، أحراراً ولا تصدر العدالة بحقهم أي حكم كان، لكن هذا الامتياز خاص بمسلمي الأندلس، ولا يشمل لسرى الجزر، أو كارييس.

المادة الخامسة والعشرون:

لا يدفع المسلمون لصاحبي السور أكثر مما كانوا يدفعونه لموتهم المسلمين من الأتراك.

المادة السادسة والعشرون:

يسمح لجميع من عبروا الحدود (المغرب) من سكان غرناطة، والأرجاء التابعة لها، والبيازين، وأرياضهما، والبشرات، وغيرها بالعودة خلال ثلاثة أعوام من تاريخ إبرام الاتفاقية، والتمتع بالامتيازات التي تمنحها لهم هذه الاتفاقية.

المادة السابعة والعشرون:

لا يجبر أي مسلم حمل معه بعض الأسرى النصراني إلى العودة، وجعلهم في قبضة سلطة أخرى، على إرجاع هؤلاء الأسرى، أو إعادة الأجر الذي تلقاه لقاء تسليمهم.

المادة الثامنة والعشرون:

يحق للملك أبي عبد الله، أو أي من قواده، أو سكان القرى، والأرجاء المجاورة لغرناطة، والبيازين، والبشرات، وغيرها ممن عبروا إلى الحدود (المغرب) ولم تطب لهم الإقامة هناك، أن يعودوا خلال الأعوام الثلاثة، ولهم الحق بأن يتمتعوا بكافة نصوص الاتفاقية المبرمة.

المادة التاسعة والعشرون:

يحق لنجار مدينة غرناطة، والبيازين، وأرياضهما، والبشرات، وغيرها، أن يحملوا سلعهم إلى العودة، ويعودوا بها آمنين مطمئنين، كما يحق لهم دخول سائر الأرجاء التي في حوزة الملكين الكاثوليكين، دون أن تترتب عليهم أية أتاوة متروكة على النصراني.

المادة الثلاثون:

لا يجوز إرغام أية نصرانية تزوجت من أحد المسلمين، واعتنقت الدين الإسلامي على العودة إلى النصرانية، إلا طائفة، وبعد أن تسأل في ذلك أمام جمع من المسلمين والنصارى. وفيما يتعلق بأبناء التروميات، وبناتهن، فلهن نفس الحقوق المنصوص عليها في هذه الفقرة.

المادة الحادية والثلاثون:

إذا سبق لنصراني ذكرأ كان أو أنثى، اعتناق الديانة الإسلامية قبل إبرام هذه الاتفاقية، فلا يحق لأحد من النصارى أن يهدده، أو ينال منه بأية صورة، ومن يفعل ذلك يلقى أثاماً.

المادة الثانية والثلاثون:

لا يجوز إلزام مسلم أو مسلمة على اعتناق النصرانية.

المادة الثالثة والثلاثون:

إذا رغبت امرأة مسلمة متزوجة، أو أرملة، أو بكر، في اعتناق النصرانية بدافع العشق، فلا يستجاب لها حتى تسأل وتوعظ وفقاً للشرعة الإسلامية. وإذا حملت معها خفية بعض الحلي أو غيرها من دار والدها أو أقاربها، أو أي شخص آخر، فيجب إعادة هذه الأشياء إلى ذويها، وتعتبر اختلاساً، وتؤلى العدالة لتخلف الإجراءات الصارمة بحققها.

المادة الرابعة والثلاثون:

أن لا يرغم صاحبها السمو، أو أي واحد من عبيدها، حاضراً أو مستقبلاً بأباعد الله الصغير، أو جماعته، أو حاشيته، أو أي أحد من سكان المملكة أو خارجها مسلمين ونصارى ومجننين، برد ما غنموه أثناء الوقائع التي جرت بينهم، من الثياب، والمواشي، والأعنام، والفضة، والذهب، وغيرها من الأشياء التي وضع المسلمون أيديهم عليها. ولا يحق لأحد أن يطالب بشيء يكتشف أنه كان له، وإذا طالب به فإنه يعرض نفسه لأقصى العقوبات..

المادة الخامسة والثلاثون:

إذا سبق لمسلم أن أهان أسيراً نصرانياً - نكراً كان أو أنثى - أو جرحه، أو قتله أثناء احتياطه به، فلا يسأل عن شيء مما كان.

المادة السادسة والثلاثون:

بعد انتهاء السنوات الثلاث المنصوص عليها في الاتفاقية، تلغى ضريبة الأملاك والضرائب الأميرية وفقاً لقيمتها الحقيقية، شأن سائر الأملاك والأراضي.

المادة السابعة والثلاثون:

تعامل أملاك القريسيان، والفائدة للمسلمين، للمعاملة المنصوص عليها في البند السابق؛ فلا يدفع عنها أكثر مما يدفع على الأملاك العانية.

المادة الثامنة والثلاثون:

وتشمل هذه الاتفاقية أيضاً اليهود من مواليد مدينة غرناطة، والبيازين، وأرباضهما، والأراضي التابعة لهما، واليهود الذين كانوا من قبل نصاري، ويسمح لهؤلاء اليهود بالعبور إلى العدو خلال شهر من تاريخه.

المادة التاسعة والثلاثون:

أن يعامل الحكام، والقواد، والفضاء الذين يعينهم صاحب السمو على مدينة غرناطة، والبيازين، والكور التابعة لهما، الناس بالحسن، وأن يحافظوا على امتيازاتهم الممنوحة لهم في المعاهدة، وإذا أخل أحدهم بذلك، أو ارتكب خطيئة، يصدر صاحب السمو أو امره بمعاينته على قدر جرمه، وعزله عن منصبه، وتولية غيره ممن يستوفون معاملة المسلمين كما نصت عليه الاتفاقية.

المادة الأربعون:

لا يحق لصاحب السمو، أو أي من أبنائهما، وأحفادهما منذ الآن التحقظ على شيء ارتكبه الملك أبو عبد الله الصغير، أو أحد رعاياه إلى حين تسليم الحمر، أي بعد مرور سنتين يوماً من توقيع هذه الاتفاقية.

المادة الحادية والأربعون:

أن لا يولى على جماعة أبي عبد الله الصغير واحد من الفرسان، أو القادة، أو الخاصة الذين كانوا موالين لمولاي الزغل ملك وادي آش، عم أبي عبد الله الصغير الذي كانت بينه وبين أبي عبد الله عداوة قديمة.

المادة الثانية والأربعون:

يتولى النظر في الخصومات التي تقع بين مسلم ونصرائي، أو مسلمة ونصراية مجلس مؤلف من حكيم، أحدهما مسلم والآخر نصرائي، نحاشياً للعظم من الأحكام القضائية.

المادة الثالثة والأربعون:

وبالإضافة إلى جميع ما نصت عليه الاتفاقية، يأمر صاحب السمو بمنح أبي عبد الله الصغير كل الامتيازات المنصوص عليها في هذه الاتفاقية الموثقة بخاتم الأمير (نجل صاحب السمو) والموقعة من قبل كريدنال إسبانيا، والكهان، والأساقفة، ورؤساء الأديرة، والشرقاء، والنوفا، والمركزات، والكونتات وأصحاب المراتب الحتيلة، وكتاب الحتيلة في مدينة غرناطة،

اعتباراً من يوم تسليم الحمراء، والبيازين، وأبوانيهما، وأبراجيهما، وتعتبر جميع محتويات هذه الاتفاقية نافذة ومبارية المفعول في الحاضر وفيما بعد.

المادة الرابعة والأربعون:

يصدر صاحب السمو لأميرهما بالإفراج عن أسرى المسلمين - ذكوراً وإناثاً - من أهالي غرناطة، والبيازين، وأرباضيهما، والكور التابعة للمملكة، إراجاً غير مشروط بنفقة أو ضية أو غيرهما وذلك بغية إرضاء الملك أبي عبد الله الصغير، وأهالي غرناطة، والبيازين وأرباضيهما، وضياعهما كافة، ويتم الإفراج عن هؤلاء الأسرى على النحو التالي:

بفرج عن جمع أسرى مدينة غرناطة والبيازين وأرباضيهما وضياعهما الموجودين في الأندلس خلال الأشهر الخمسة التي تعقب إبرام المعاهدة، وبفرج عن الأسرى الموجودين في قشتالة خلال الأشهر الثمانية التالية، وبعد انقضاء يومين من تسليم أسرى النصارى لصاحب السمو، يتسلم المسلمون مائتي أسير مسلم، مئة من الرهائن، والمائة الثانية من غير الرهائن.

المادة الخامسة والأربعون:

يصدر صاحب السمو لأميرهما بإخلاء سبيل القرامس الأسير عند هونثو فرانكت، وعثمان أسير الكونت تندا، وابن رضوان أسير الكونت قيرة، وإعادة ابن الفقيه محي الدين وخمسة أشخاص من خاصة إبراهيم بن السراج الذين لقنوا وعرف مكان وجودهم، وذلك في الوقت الذي يسلم فيه صاحب السمو أسرى مدينة الحمراء والبيازين المائة، والرهائن المائة.

المادة السادسة والأربعون:

إذا خضعت أية ناحية من نواحي البشرات لسلطة صاحب السمو، فإنه يتأتي على المسلمين تسليم جميع الأسرى النصارى الموجودين لديهم في مدة أقصاها خمسة عشر يوماً من تاريخ الانضمام، دون أن يؤدي سموهما أي شيء مقابل ذلك التسليم، كما يجب على هذه النواحي، تسليم أية رهينة من النصارى لديهم خلال هذه المدة. ويقوم صاحب السمو في مقابل ذلك بإعادة جميع أسرى المسلمين المحتجزين لدى الإسبان.

المادة السابعة والأربعون:

يتعهد صاحب السمو لجميع السفن التي تأتي من العدو (المغرب) وترسو في موانئ مملكة غرناطة، بحرية النقل جينة وذهاباً، وهي آمنة شريطة أن لا تقوم بنقل الأسرى من النصارى، ويصدر صاحب السمو لأميرهما للنصارى بعدم اعتراض هذه السفن، أو الإضرار بها، أو بأهلها، أو بمصافرة أي شيء منها.

وفي حالة مخالفة إحدى السفن لهذه التعليمات بنقلها بعض الأسرى من النصاري، فإن
حقها في الحماية يصبح لأغياً، ويحق لسمورها إرسال مفتش أو مفتشين يتوليان مهمة تفتيش
السفن التي تعبر إلى الحدود للتحقق من تفضاء هذه التعليمات.

معاهدة تسليم غرناطة السرية*

المعقودة بين أبي عبد الله الصغير، والملكين
الكاثوليكين؛ ضون فرديناند وضونيا إيسابيلا

وفي اليوم الذي وقعت فيه معاهدة تسليم غرناطة وهو يوم ٢١ محرم سنة ٨٩٧هـ الموافق ٢٥ تشرين الثاني، وفي المكان نفسه، وهو المعسكر الملكي بمرج غرناطة، أبرمت معاهدة أخرى في غاية من السرية ملحقاً لهذه المعاهدة، وتضمنت الحقوق والقوانين والالتزامات والامتيازات التي أعطيت لأبي عبد الله الصغير ملك غرناطة، وأفراد أسرته وحاشيته، وقد ملأ المسلمين - في هذه الاتفاقية - القائد أبو القاسم الملبح وكيلاً لأبي عبد الله الصغير ملك غرناطة، وقمها باسمه، ومهرها بخاتم، وهي تنحصر في ست عشرة مادة على النحو التالي:

١. يتعهد ملك غرناطة، والقادة، والفقهاء، والقضاة، والحجاب، والعلماء، والمفتون، والشيوخ، ووجهاء غرناطة والبيازين وأهاليهما وأرياضهما كافة صغاراً وكباراً بأن يسلموا إلى صاحبي السمو أو من ينتخبانه - في جو من الوفاق والمصالحة وفي مدة أقصاها مئة يوماً اعتباراً من ٢٥ نوفمبر عام ١٤٩١م - الأماكن التالية: قلاع الحمراء، وحصونها، وأيوبيها، وأبراجها، وأية أبواب أخرى في مدينة غرناطة، وكوررها، وكذلك جميع الأبواب التي تحددها هذه المعاهدة، وأن يعلنوا عن ولائهم وطاعتهم وإخلاصهم لصاحبي السمو، وأن يؤدوا واجبهم تجاه سادتهم الجدد شأن سائر رعايا البلاد المخلصين. ولضمان سلامة تنفيذ هذه البنود، يقدم ملك غرناطة، وقائمه، وجميع الأشخاص المذكورين أعلاه، خمسمائة شخص من أبناء علية القوم، وإخوانهم في المدينة، والبيازين لصاحبي السمو في المعسكر الملكي بمرج غرناطة، وذلك قبل تسليم الحمراء بيوم واحد، مصطحبين معهم الحاجب يوسف بن قماش، ليكونوا جميعهم رهائن لدى صاحبي السمو لمدة عشرة أيام يتم خلالها ترسيم القلاع، ونزويدها بالمؤن، شريطة أن يعامل الرهائن إلى حين انتهاء هذه الفترة معاملة حسنة. وعند انتهاء الأجل، يرد الرهائن إلى ذويهم. وتشرى هذه الاتفاقية

* انظر نص المعاهدة في: حتامنة، الأندلس: ٦٥٣ وما بعدها.

على صاحبي السمو، وإيهما الأمير ضون خوان، وعقبهم، وأن يعامل أبو عبد الله الصغير، وجماعته، وجميع الشرف منطقة غرناطة، والبيارين وأية أماكن أخرى كرعايا وأتباع، تهم نفس الحقوق التي للرعايا الأصليين، وأن تشملهم حماية صاحبي السمو ورعايتهم، وأن تترك لهم جميع منازلهم، وأموالهم، وأماكنهم من الآن وإلى أجل غير مسمى، دون أن يلحقها أي شيء، أو يصائر شيء منها، وفي مقدمة ذلك كله، يعامل الجميع باحترام وتقدير، شأن سائر الرعية من الأميان.

٢. في اليوم الذي يتم فيه تسليم الحمراء والحصون والقلاع، والأبواب التي حذقتها الاتفاقية، يقوم صاحب السمو بإعادة ابن أبي عبد الله الصغير المحجوز ليهما، مع سائر الخدم والحشم الذين لم يكرهوا على التنازل أثناء احتجازهم إلى الملك أبي عبد الله الصغير.

٣. بعد أن ينفذ أبو عبد الله الصغير كل البنود المذكورة في المعاهدة، يتعهد صاحب السمو بمنح أبي عبد الله الصغير وأولاده وأحفاده وورثته حق الملكية المطلقة على الأماكن التالية:

Las Tahas de Berja	الأرجاء والكور في برجة
Dalias	ولاية
Marchena	مرشالة
Boloduy	بلدوذ
Luchar	لوتشار
Andarax	اندرش
Jubiles	شيبيلش
Ugijar	اجيجر
Orgiba	ارجية
Cueihel	سويهل
Poqueira	بقورة

على أن تؤدي جميع الضرائب، والإتاوات، والرسوم المستحقة إلى صاحبي السمو. ويحق لأبي عبد الله الصغير وأولاده وأحفاده وورثته بحكم الملكية المطلقة لهذه المناطق وما يلحق بها من الأرجاء المسكونة وغير المسكونة، تحصيل خراجها، وموروثاتها، وربيعها، وعشورها، وحقوقها، كما يحق لأي واحد من هؤلاء أن يتولى القضاء في هذه الأرجاء والكور المذكورة باعتباره سيدها، ولكنه في الوقت نفسه تابع وخاضع لصاحبي السمو. ولا يستطيع أي إنسان السيطرة على أي من هذه المناطق

لأنها تعتبر من الناحية القانونية ملكاً فرعياً لأبي عبد الله الصغير، وله حق التصرف بها، وحرية بيعها أو رهنها متى شاء، شريطة أن تكون الأولوية عند البيع أو الرهن لصاحبي السمو. وإذا أراد شراءها فينتقلان مع أبي عبد الله على الشئ الذي يرضى به، ويستطيع صاحب السمو الاحتفاظ بقلعة عذرة وأراضيها مع سائر القلاع والأبراج الممتدة على الساحل إذا رغب بذلك، وإذا شاء صاحب السمو استغلال قلعة عذرة، بالإضافة إلى مياه شاطئ عذرة - إن أمكن ذلك - وتبقى قلعة تابعة لأبي عبد الله الصغير بعد أن يصلحها ويحصنها صاحب السمو، وفي مراحل الإصلاح والتحصين تكون تابعة لصاحبي السمو، وبذلك لا يطالب صاحب السمو بالفوائد المستحقة على القلاع، والأبراج الممتدة على ساحل البحر. أما حراسنها، وحمايتها فهي من شأن أبي عبد الله الصغير. ولما دخل هذه القلاع، والكور، والأرحاء، وورداتها في مراحل الإصلاح والتقوية والاستغلال، فليس لأبي عبد الله شيء منه باستثناء عائدات تأجيرها. لكن هذه القلاع، والأرحاء، والكور تبقى ملكاً لأبي عبد الله، ولا تصدر منه. وإذا أئتم صاحب السمو على شخص معين بشيء من هذه الممتلكات التي اقتطعت لأبي عبد الله الصغير، فلا يجوز له بيعها، وإذا ما رأى التخلي عنها، يقوم صاحب السمو بتعويضه عنها بالطريقة التي يرضيه. أما إذا تركت هذه الأملاك للملك أبي عبد الله الصغير، فيبقى ربيعها ودخلها من حق أبي عبد الله كما هو شأنها الآن. وفيما بعد، دون أن يشهدها أي خطر أو حذر، أو اعتراضات أخرى.

٤. يقدم صاحب السمو إلى الملك أبي عبد الله الصغير حية قدرها ثلاثون ألف جنيه قسماً من الذهب، تعادل (١٤) كوينتس و (٥٥٠.٠٠٠) مراكيني، يبعث بها إليه عقب تسليم الحمراء، وبقية القلاع في الوقت المحدد لها.
٥. يمنح صاحب السمو للملك أبي عبد الله الصغير كل ما ورثه عن والدي السلطان أبي الحسن، سواء في غرناطة، أو في البشائر، لتكون ملكاً له ولأولاده وعقبه وورثته.

• هكذا وردت في النص.

• • مراكيني Maravedis أو Morabetino عملة إسبانية قديمة، تشير إلى عصر المرابطين، ونفوذهم السائد بالأندلس، فهي تبنر الذهب المرابطي الذي أصبح - لصحة وزنه وعياره - النموذج المعتمد في بلاد المغرب والأندلس. وقد تم سكّه في مدن مغربية وأندلسية معاً، بيد أن قيمة (المرابطي) صارت تتراجع، وصفاتها أصبحت تختلف باختلاف العصور، لدرجة أنها في العهود المسيحية المتأخرة بإسبانيا اختصرت وقسمت إلى ما يعرف بليليون Vellon الذي كان يسك إما من مزيج من الفضة والفضة معاً، وإما من النحاس وحده.

وتتضمن هذه الشركة معاصر للزيت، وأراضي، ومزارع، وحدائق (حولكير). وله الحق في بيعها أو رهنها والتصرف بها كيفما يشاء، كسائر الكور والأرحاء التي سلف ذكرها، باستثناء الأملاك التي كانت بحوزة بني نصر ملوك غرناطة السابقين، فإنها تبقى ملكاً للدولة، ولا يجوز التصرف بها إلا بأمر صاحبي السمو.

٦. يمنح صاحب السمو لملكات غرناطة، خاصة عائشة والدة أبي عبد الله الصغير، وأخته وزوجته مريم، وثرثا زوجة والده السلطان أبي الحسن علي المعروفة بإسمايل دي سوليس، كل ما كان يملكه في غرناطة والبشرات من الحواكير والأراضي والأرحاء والطواحين والحمامات، بحيث تكون ملكاً لهن ولعقبهن إلى الأبد، ولهن الحق في بيعها ورهنها والتصرف بها كما يشأن، مع ما يلحق ذلك من الامتيازات الممنوحة لأبي عبد الله الصغير.

٧. تعفى جميع التركات التي ورثها أبو عبد الله الصغير، والملكات المذكورات، وثرثا زوجة مولاي أبي الحسن علي بن نصر، من الضرائب والفوائد اعتباراً من الآن وإلى الأبد.

٨. يعطى للملك المذكور (أبو عبد الله الصغير) والملكات المذكورات، كل ما كان ملكاً لهن في مطريل، وتعطى للحجة ربيعة العقارات التي كانت لها في مطريل لتساوى بالامتيازات الممنوحة سابقاً.

٩. إذا استسلمت لصاحبي السمو أية قرية، أو مواقع تابع للملكة قبل تسليم الحمراء، فعلى صاحبي السمو إعادة جميع هذه المواقع للملك أبي عبد الله الصغير بشكل طوعي وسوف تحظى هذه الأماكن بعناية أبي عبد الله الحسنة.

١٠. أن لا يطالب صاحب السمو، أو أي واحد من سلاطينها، ملك غرناطة أو لياً من أتباعه في أي وقت بتبادل ما غنمه الطرفان - المسلمون والنصارى - من الأموال والعقارات باستثناء ما تنص عليه بعض الاتفاقيات، ومعاهدات التسليم الخاصة المعقودة بين صاحبي السمو وملك غرناطة، بحيث يدفع صاحب السمو لملك العقارات ثناً لها لتنتقل ملكية إلهما، ويحظر على أي إنسان - نصرانياً كان أو مسلماً - المطالبة بأحقية بوضع يده عليها بقليل ولا بكثير، ومن يخالف ذلك تتخذ بحقه أشد العقوبات الصارمة، ويعتبر خارجاً عن القوانين الإسلامية والنصرانية على السواء.

١١. عندما يرغب الملك أبو عبد الله الصغير، والملكات المذكورات أنفاً وزوجة مولاي أبي الحسن علي والدة أبي عبد الله الصغير، وأولادهم، وأحفادهم، وقائدهم، وأتباعهم، ونسائهم، وفرسانهم، ورماتهم، وغيالهم، في العبور إلى العنوة (المغرب)

سوف يجهز صاحب السور سفينتين كبيرتين من مدينة جنوة للجواز بهم في الوقت الذي يشاؤون، وبحوزتهم أموالهم وثيابهم وذهبهم وفضتهم وجواهرهم وموائيمهم وأسلحتهم ما عدا ذخائر تلك الأسلحة، دون مقابل من نفقة أو أجر أثناء صعودهم السفن أو نزولهم منها، مع تأمين وصولهم بطمأنينة وأمان وحسن معاملة لأي مكان معروف سواء في المغرب أو الإسكندرية أو تونس أو لوران أو فاس أو مكان يرغبون بالهبوط فيه.

١٢. إذا لم يتمكن الملك المذكور، أو أي شخص من المذكورين أعلاه من بيع عقاراته المشار إليها فله الحق في توبيخ من يشاء لاستلام ريعها، وإرساله لخب أينما كان، دونما هائق أو قيد أو حرمة.

١٣. يسمح للملك أبي عبد الله الصغير - متى شاء - أن يرسل بعض كتابعه أو عماله إلى أرض العترة (المغرب) للتجار بالسلع مصدريين ومستوردين، دون أن يتوجب عليهم دفع أية نفقات أو ضرائب أو غرامات مالية مقابل هذا الاتجار لا في ذهابهم ومكوثهم هناك، ولا في إيابهم.

١٤. يسمح للملك أبي عبد الله أن يبعث بست دواب محملة بالسلع إلى أية ناحية من النواحي التابعة لصاحبي السور من أجل مقايضتها بالزاد والمؤونة اللازمة، وتكون هذه الدواب معفاة من جميع الضرائب في القواني، والمدن، والقرى، والأماكن التي تجزي فيها بالمقايضة، إعفاء مطلقاً دون قيد أو نفقة.

١٥. عندما يخرج الملك أبو عبد الله الصغير من مدينة غرناطة، تمنح له حرية الإقامة والمسكن في الوقت الذي يشاء، وفي الأراضي التي اقتطعت له حسب الاتفاقية. ويسمح له بالخروج مع من يشاء من حشمه وقنائه وعلمائه وفنائه وفرسانه وكل من يرغب بالخروج معه بخيولهم ودوابهم وأسلحتهم وبرفقة زوجاتهم وحببيدهم، ولا يؤخذ منهم سوى الذخائر التي سوف يضع صاحب السور عليها أيديهما، ولن يفرض على أي من ذريتهم - في أي وقت - وضع علامة مميزة لهم في ثيابهم، ولهم أن يتمتعوا بسائر الامتيازات المنفوق عليه في وثيقة تسليم مدينة غرناطة.

١٦. يأمر صاحب السور بإعطاء كل ما ذكر في الاتفاقية للملك أبي عبد الله الصغير والملكات، ووالته، وزوجته ووالدة مولاي أبي الحسن، وذلك في نفس اليوم الذي يتسلم فيه صاحب السور الحمراء، وجميع القلاع التي أدرجت ضمن هذه المعاهدة.

وفي ختام هذه المعاهدة، تعهد الملك فرديناند، وزوجته الملكة إيسابيلا صاحبا ممالك
ليون وأراغون وصقلية...الخ أن يأخذا على عاتقهما تنفيذ شروط هذه المعاهدة جميعها،
بحرفيتها، دون أي تعديل من زيادة أو نقصان مهما كانت الأسباب، ولن تبقى على حالها دون
تغيير أي حرف أو إيداله إلى الأبد. ولا يكون بمقدور أحد ممن يخلف الملكين أو يخلف أبنائهما
أو حفيدتهما نقض أي بند من بنودها إلى ما شاء الله.

وصدرت الأوامر بتعميم مضمون هذه المعاهدة على الأمراء والوزراء والقادة والرهبان
والرعية والأحفاد. وأصدر مرسوم يهند كل من يجرؤ على المس بما تضمنته هذه المعاهدة.
وقد نيل هذا التوكيد بتوقيع الملكين، وتوقيع نجلتهما الأمير وحشد كبير من الأمراء
ورجالات النبوة وأشرافها ولجبارها.

وأدى الملك فرديناند، والملكة إيسابيلا وسائر من حرروا الشروط القسم بدينهم
وأعراضهم أن يصونوا المعاهدة إلى الأبد، وعلى الصورة التي (انتهت) إليها، وحررها فرناندو
دي زافرا.



قراقول (الحراء)



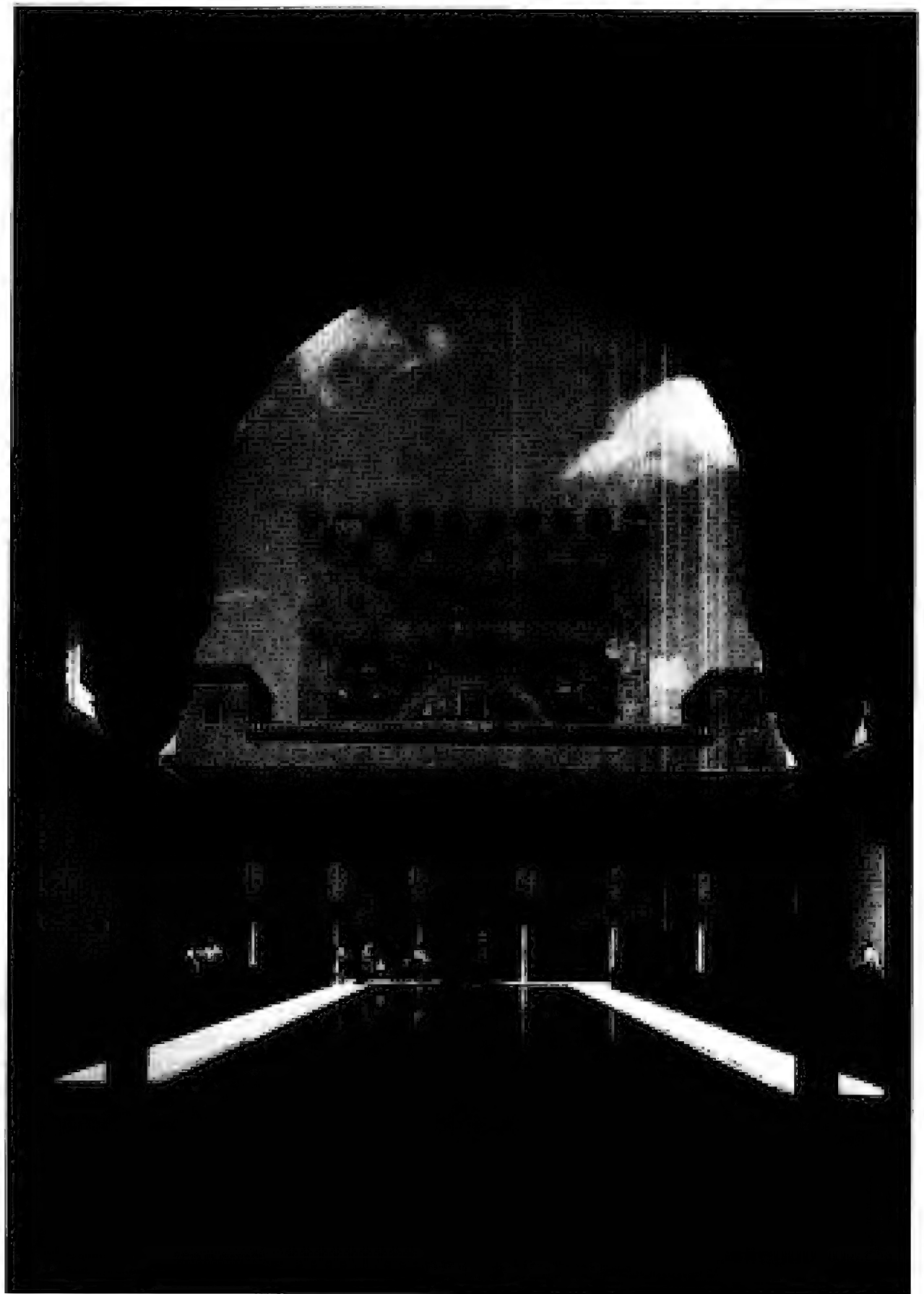
قراقول (الحراء)



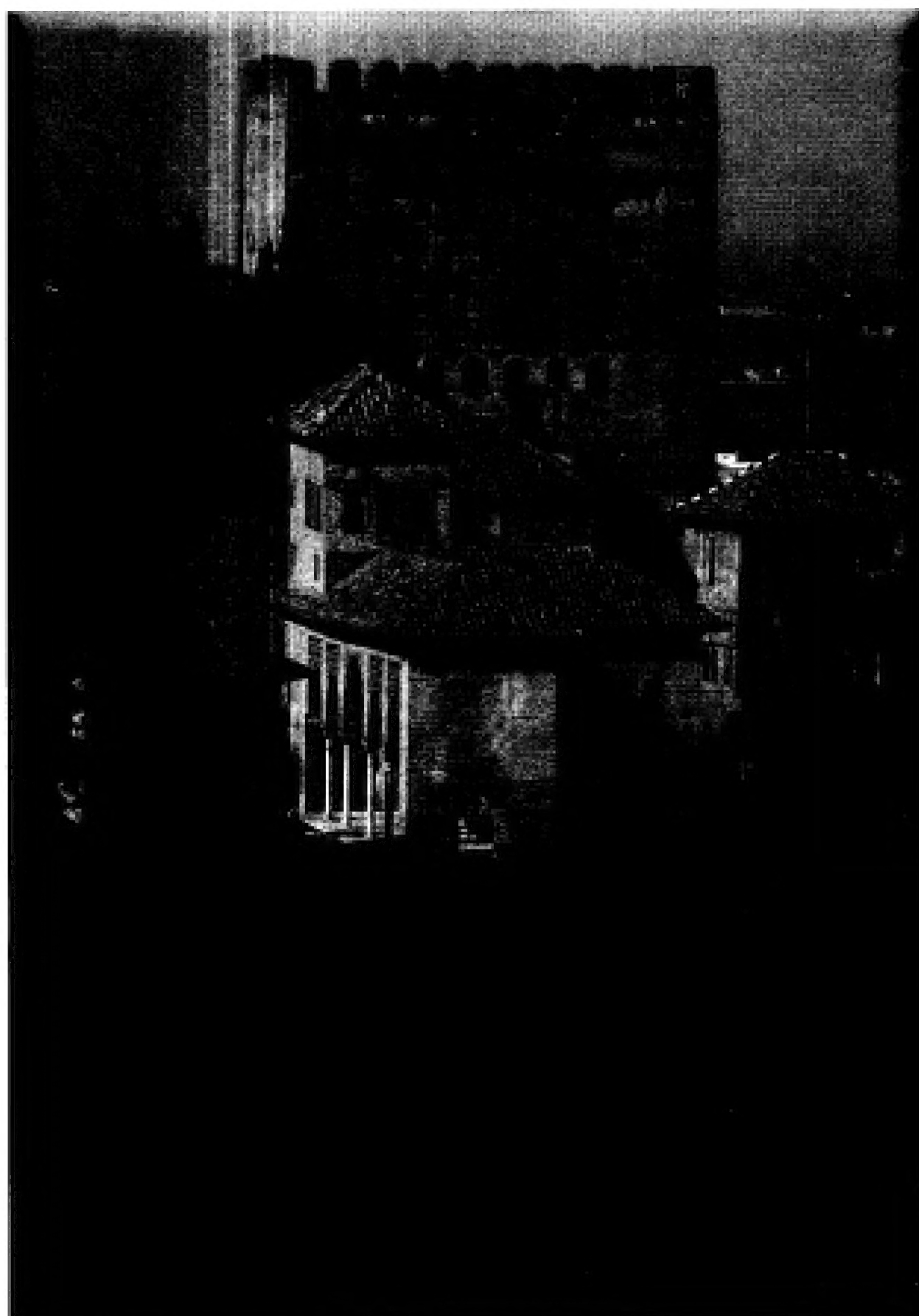
خربة حمامة (الحمام)



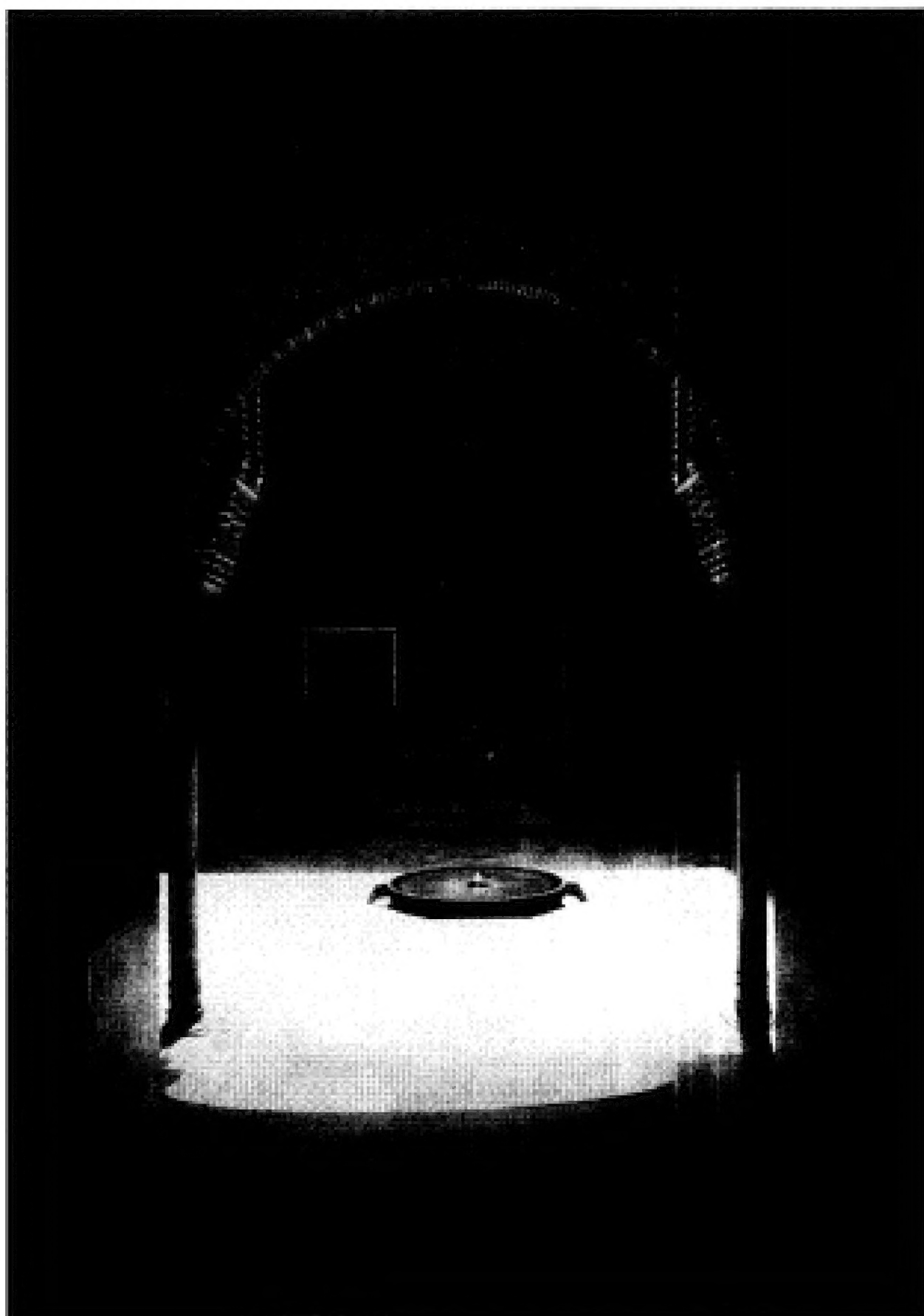
خربة حمامة (الحمام)



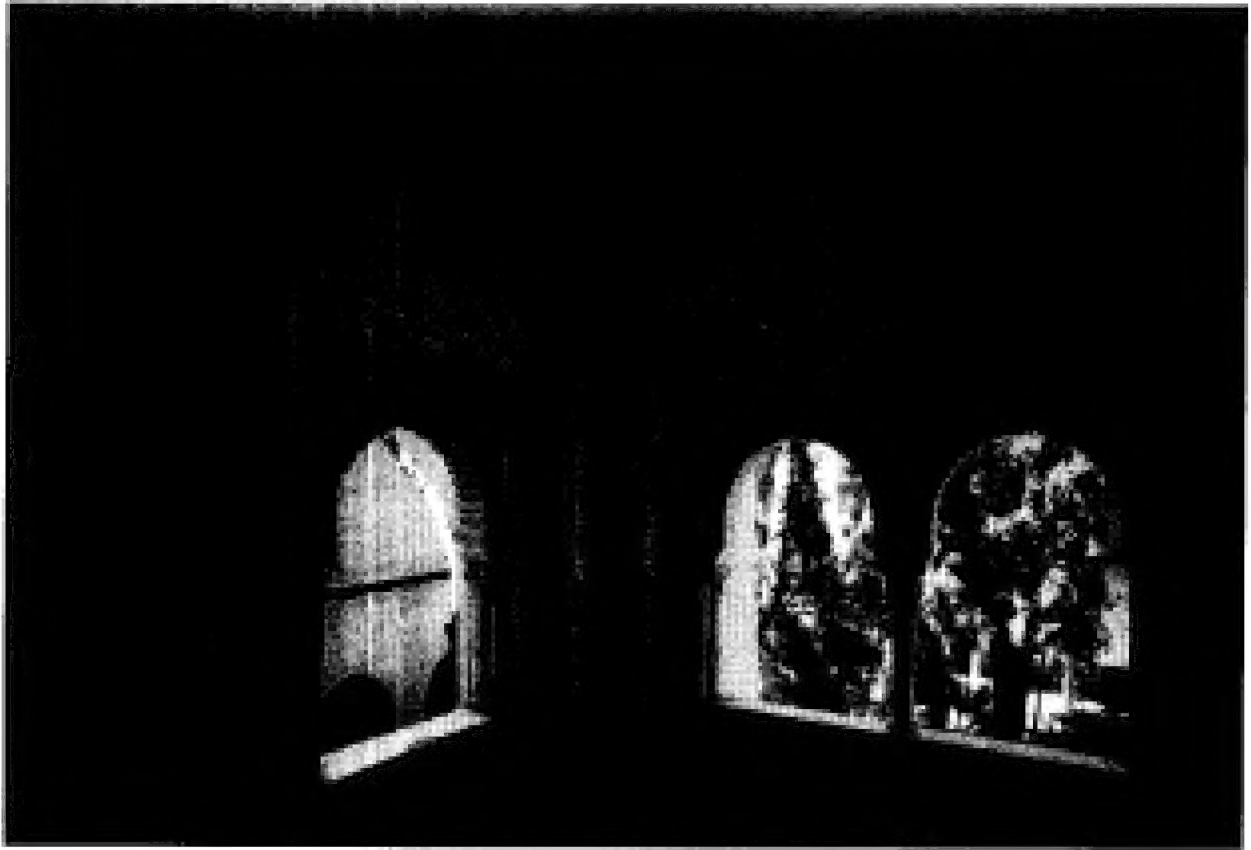
شرفاطلة (الحمراء)



غرناطة (الحمراء)



غرناطة (الحمراء)



غُرْناطة (الحمراء)



خارطة العالم

نية المهتدين الاسلاميه لمقارنة الادب

<http://kotob.has.it>

<http://www.al-maktabeh.>

